غضب الشيخ

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى
رمضان ١٤٢٧ هـ
سبتمبر ٢٠٠٦ م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
info@almaktabalmasry.com

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

غضب الشيخ

سليمان جودة

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.co

قبل أن تقرأ

الأسباب التى تدعوك، إلى محبة وتقدير الداعية الكبير الراحل، الشيخ محمد الغزالى، كثيرة، ومتعددة.. وهى يمكن أن تختلف من شخص لآخر..

فأنت ـ مثلاً ـ قد تحبه، لأنه كان غيوراً على دينه، إلى درجة لافتة للنظر، وكان يذهب فى غيرته تلك، إلى التعامل ببعض القسوة والعنف، مع المتنطعين على طريق هذا الدين، وهم ليسوا قليلين.. وقد كانت طريقته فى صد هذا التنطع، وفى رفضه، بل وفى فضحه، تشير إلى أنه لم يكن يهمه كثيراً، أن يرضى عنه الناس، ثم يسخط عليه الله.. كان مهموماً ومهتما، بالدرجة الأولى، بأن يأخذ الناس، إلى حيث يتعاملون مع أمور دينهم، كما نزلت فى بكارتها الأولى، وقبل أن يلحقها بعض الغبار، الذى من طول تراكم بعضه فوق بعض، ظنه كثيرون، أنه من الدين.. مع أنه لم يكن منه فى شىء.

وكان الرجل صاحب جرأة وشجاعة نادرتين، فى إبداء رأيه، وفى التمسك به، أياً كان رد الفعل ممن كانوا يحبونه أن يميل معهم.. حيث يميلون.. ولم يكن هو يقبل ذلك على أى صورة.

وقد رأيت ذلك بنفسى، مرتين، وبوضوح: مرة من خلال مؤلفاته وكتبه، التى طالعت أغلبها، وخصوصا كتابه المهم جدا «مائة سؤال عن الإسلام» .. ومرة أخرى من خلال أكثر من حوار لى معه، فى بيته بالمهندسين.. وهى حوارات منشورة كلها، فى «الوفد».. قبل رحيله بسنوات.

ومما أثار الشيخ، ذات يوم، وجعله يفقد أعصابه، ويكاد يخرج عن صوابه ووقاره، أن أحداً قد راح يستفتيه فيما يتعين عليه أن يفعله، إزاء قريب له، كان يشكو من أن عفريتاً قد لبسه، وأن جاناً قد تمكن منه، إلى درجة لم يكن يستطيع معها هذا القريب المريض أن يعيش أو يستقر له منام.. أو حتى يقظة!!

ومن الواضح أن الشيخ كان قد سمع مثل هذا، من كثيرين، كانوا قد سبقوا اليه، يسألون ويستفتون فى أمر الجن والعفاريت.

ولقد ضج الشيخ، من كثرة ترداد مثل هذا السؤال، ومن اعتياد مسلمين بلا حصر، على أن يعلقوا أسباب فشلهم، فى أمور حياتية، كثيرة، فى رقبة الجن والعفاريت!.. دون أن يكون للجن، فى حقيقة الأمر، أدنى علاقة بهذا الفشل.

ولما بلغ الضجر بالشيخ، مبلغه، صاح فى وجه أحد هؤلاء السائلين: يا أخى.. أنا لا أعرف لماذا تركب الجن والعفاريت، المسلمين وحدهم؟!

وهى واقعة شهيرة، رددها الشيخ أكثر من مرة، وذكرها فى واحد من كتبه.

وكان الداعية الراحل الكبير، على حق فى ثورته، وفى غضبه، وفى زهقه، وفى ضيقه، من هؤلاء الذين لم يكونوا يجدون شيئا يسألون عنه، إلا مثل هذا السؤال الذى لا يجوز أن يكون له مكان، فى سلم الأولويات، بالنسبة لنا.. ولم يكونوا يقعون على سبب، لإخفاقهم فى حياتهم، إلا أن يلوذوا بما يمكن أن يكون ميداناً واسعاً، للأخذ والرد، ولإخفاء مسئولية أصيلة لهم، عما أصابهم من خيبة وسوء حال.

وفى روايته الشهيرة «الإخوة كارامازوف» أدار دوستوفسكى حوارا طويلا، بين أحد أبطال الرواية، وبين الشيطان، الذى كان يشكو، طول الوقت، من أنه كبش فداء لكثير من خيبات البشر، وأنهم يلصقون به كل شر، وينسبون إلى أنفسهم كل خير.

وعندما جئت، من جانبى، لمراجعة فصول هذا الكتاب، اكتشفت أن كل فصل منه، وكل مقال، يحمل على نحو أو آخر، فى موضوعه، رائحة ذلك التنطع القديم، الذى كان الشيخ يجاهد أن يدفعه عنا. وكان لا تأخذه شفقة ولا رحمة، فى التعامل مع هؤلاء الذين لم يكونوا يدركون، ولايزالون لا يدركون، أن إلحاحهم فى السؤال عن مثل هذه الأمور، إنما يسىء أولاً اليهم، وإلى الدين الذى ينتسبون اليه، كما أن هذا الإلحاح، الذى لا معنى له ولا مبرر، إنما يعكس نقصاً فى الفهم، وعجزاً عن الإدراك السليم، وتهربا مخجلاً، من أن يأخذوا الأسباب بمسبباتها، ومن أن يكونوا على قدر المسئولية، التى وضعها دينهم، على كاهلهم، لعلهم ينهضون بها..

فى كل فصل، وفى كل مقال، من هذا الكتاب ـ رغم أنه ليس فى الدين، ولا فى واحد من علوم الدين ـ سوف يتبدى لك، وأنت تقرأ، غضب الشيخ الراحل، وهو ينصح الساعين اليه بالسؤال، بالعنف مرة، وباللين مرة أخرى، بأن يتوقفوا عن ممارسة عبث لا طائل من ورائه، وأن يأخذوا أمورهم بالجدية المطلوبة، والمسئولية المفروضة، ولو مرة واحدة.

فى كل سطر، وليس فقط فى الفصل الذى يتصل موضوعه، مباشرة، بحكاية الجن والعفاريت تلك،.. أقول، فى كل سطر، كنت أحس أن الشيخ

يطل بروحه من العالم الآخر، .. ولسان حاله يقول، إن كان تلك الأسباب، التى نعلق عليها مسئولية ما كان قد جرى لنا يوماً، وما يجرى لنا اليوم، وهى أسباب تبدأ بالدهر المشاكس، وتمر بالأيام الصعبة، وتنتهى بالظروف غير الملائمة.. إنما هى فى حقيقتها، أسباب واهية، وخيالية، وليس لها أصل من وجود.. وأن الأجدر أن نأخذ أنفسنا بالحساب والعقاب، وأن نلتفت إلى أن قلة حيلتنا، وليست أية أشياء أخرى، هى السبب فيما صار إليه حالنا.. من سوء.. وهو حال لم يعد ينبغى معه الصمت ولا السكوت!

وربما كان هذا الكتاب، بمضمونه، نوعاً آخر من الغضب، من ناحيتى، يوازى ذلك الغضب الذى كان قد استبد طويلا، بشيخنا الراحل... الكبير.

غضب الشيخ!

لا العيب فى زمانك. ولا فى مكانى، ولا فى ظروف الآخرين. إنه فينا، نحن، جميعا وبغير استثناء.

ويظهر أن الشكوى من سوء الأحوال، وتردى الاوضاع، قديمة عندنا، ومتأصلة فى داخلنا.

وإلا.. فما معنى أن يقوم واحد، من ألف عام أو يزيد، يرد على آخر يلقى بمسئولية تدهور النفوس والأمور، على الزمان، وليس الأشخاص.. يرد عليه بأننا نعيب زماننا، والعيب فينا، وليس لزماننا عيب سوانا!!

يقول الإمام الشافعى:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

اسمه، أو رسمه، لن يهمنا كثيرا على كل حال. يكفى أنه عربى، يتكلم العربية، ويشخص وجعاً أساسياً من أوجاع ابنائها الناطقين بها، وهو - أى الوجع - إلقاء المسئولية على أى شخص آخر، فإذا لم نقع على الأشخاص المناسبين، كان الزمان شماعة جاهزة، ومريحة، ثم إنها غير مكلفة، ولا تشكو مهما كان حمل الأثقال والشكاوى الملقاة عليها.

ولانزال إلى اليوم، نسمع رجلا يعنف آخر، أو يلومه على تقصير فى أداء واجب، فيرد الملوم، والمسئول عما وقع من تقصير أو إهمال، بأنها: ظروف!

يقولها، وينفخ فى ألم، كأنما «الظروف» هى فعلا المسئولة، عما بدر منه، أو فعل بيديه.

ونكون مخطئين، بغير شك، إذا انكرنا أن الظروف، أو الحظ ـ بمعنى بلدى أكثر ـ يمكن أن يحالف أشخاصا، ويخذل آخرين، دون أن يكون هناك ذنب لهم فيما جرى أو يجرى.

نكون مخطئين، لأن الحظ حقيقة مذكورة فى القرآن الكريم، قبل أن يكون فألا يمضى بين الناس بوجه حسن تارة، وسيىء تارة أخرى.

ولكن الحظ أو الظروف ـ ولا ننسى أنهما وجهان لعملة واحدة ـ لا يمكن أن يقفا بالمرصاد، لنا جميعا، على مر الأيام والسنين.. وعن قصد فيما يبدو.

الحظ يعاكس مرة.. يجوز.

يشاكس مرات.. ربما.

الظروف تسوء يوما أو أياما.. ممكن جدا.

الأحوال تدور بالعكس أحيانا.. لا أحد يستطيع أن ينكر ذلك.. إلى آخره.

أما أن تدوم الأحوال المعاكسة، وتستمر مشاكسة الحظ، ولا ينقطع أو يتوقف دوران الأحوال فى الاتجاهات المعاكسة.. ودائما وأبدا، فهذا هو غير الممكن وغير المقبول، ومعناه ـ على طول ـ أن الغلط فينا نحن، ويركبنا نحن، من فوق لتحت ـ كما نقول ـ وليس فى الزمان أو المكان أبدا.

والداعية الراحل الكبير، الشيخ محمد الغزالى، كان يعنف الذين يذهبون إليه، وعلى ألسنتهم شكوى من أن فلاناً قد ركبه عفريت.. كان الشيخ يرد السائلين فى عنف وغضب وهو يقول: لماذا تركب العفاريت المسلمين وحدهم؟!

وليس أدل على أن الغلط غلطنا نحن، من أن هناك آخرين، فى بلاد أخرى، غير عربية، يحلو لهم الزمان، وتصفو سماؤهم ـ دوننا ـ ولا يشكون.

إذن.. مطلوب منك، أن تفتش فى داخلك، وفى محيطك أنت، عن سبب ما أنت، ثم ما نحن فيه، والذى هو ليس إلا مجموعة ظروف خاصة.. ظرفك وظرفى وظرفه.

إبحث وسوف تكتشف أن الزمان برىء!

آخر ما نفكر فيه!

فى فمك عضلة، والأخرى فى صدرك، وبهما قيل أن الإنسان يعيش، أو يهلك.

أما التى فى فمك، فهى لسانك الذى قد يطلقه الله، فتصير من أهل الفصاحة والبيان.

وأما التى فى صدرك، فهى قلبك.

ونحن نعرف، أن بعض الناس، تنعقد ألسنتهم عن الكلام تماما، إذا ما رأى الواحد منهم، فى صغره، شيئا يصدمه، أو حادثا بشعا لا تتحمله طاقته.

ولا يندم الرجل، فى أحيان كثيرة، على شىء، قدر ندمه على أنه لم يمسك لسانه، فى مواقف كان الأدعى له فيها.. أن يضع لسانه فى فمه ويسكت.

واللسان، دائما، يغرى بالكلام، والذى فى صدره سر، يلاحظ أنه، أى السر، يظل يتدافع، كأنه سجين يحفر فى حائط السجن، حتى يجد سبيله إلى الهواء.

والرجل، فى العادة، أكثر قدرة من المرأة على حفظ السر، فشهوة الكلام لا تقاومها المرأة، ولا تستطيع، وبعض النساء يحدثن انفسهن، إذا لم يجدن أحداً يحدثنه، وهذه حقيقة تستطيع أن تراها بوضوح، لو أنك راقبت امرأة عن بعد.

والذين هم أحرص على السكوت، منه على الكلام، قالوا إن السر بين اثنين ذائع، وأنه ليس سرا بالمرة، مادام قد تجاوز حدود صاحبه، وإلا ما كان اسمه: سراً.

ومعروف أن الذى يفقد القدرة على الكلام، أو بمعنى أدق، ينعقد لسانه، صغيرا، فى حادث أو ما يشبهه، لا يستعيد القدرة على الحديث الطبيعى مرة أخرى، ولا تنفك عقدة لسانه، إلا إذا تعرض لشىء يشبه ما عقد لسانه، فى البداية.

وفى تراثنا الشعبى، أمثال رائجة، وكثيرة جدا، تحرضك على السكوت، وتحذرك من العكس.

بل تمادوا ووزنوها، ووجدوا ـ لا تعرف كيف ـ أن الكلام إذا كان من فضة، فإن السكوت من ذهب.

ولكن، يبدو أننا، أهل مصر، عندنا شغف من قديم، بالفصاحة والبيان، وسحر الكلام بوقعه ونظمه.

ولو تعود إلى يوم أراد الله أن يبعث موسى عليه السلام، إلى فرعون مصر، وأهلها، فسوف تلاحظ شيئا عجيبا.

هذا الشىء هو أن موسى عليه السلام قد طلب عون أخيه هارون عليهما السلام.. والعون المطلوب، كان محددا وواضحا.

لقد أقر موسى، بأن أخاه أفصح منه لسانا، وأنه، لذلك، أقدر على أن يخاطب الفرعون والذين معه.

وعلى كثرة الأنبياء، فى بلاد كثيرة، لا تقع على مثل هذا الشىء الفريد.

بل إن موسى عليه السلام، قد دعا الله أن يفك عقدة لسانه، ليفقهوا قوله وكلامه، ويفهموا عنه رسالته.

طبعا، ليس أهل مصر وحدهم، فالعرب جميعا أصحاب لغة وبيان، والقرآن الذى نزل فيهم، دليل قوى على ذلك.

ولو أن هذا الغرام القديم، بيننا وبين الفصاحة، والكلام المنثور والمنظوم، يمتد إلى المعنى أيضا.. المعنى أو المعانى التى ينطوى عليها الكلام، لما كانت هناك مشكلة ولا ضرر.

وإنما من الواضح، أن الشكل قد شغلنا، من قديم جدا، عن الحقائق والمعانى التى يقصدها صاحب كل رسالة.

وكل متحدث، المفروض أنه صاحب رسالة، يريد أن يقولها، فليس هناك رجل يتكلم، لمجرد أنه يريد أن يقول، أو يزيد ويعيد.

والواقع أننا مشغولون بظاهر الكلام، وظواهر الأشياء.. أما المعنى، أو ما هو مقصود، فذلك آخر ما نفكر فيه.

متى نتوقف عن هذا العبث؟

كلامك، ليس له قيمة، ولا معنى، إذا لم يأت فى توقيته الصحيح.

والخطأ فى حساب فروق التوقيت، يجعله عليك، وليس لك، وعندئذ يكون السكوت أفضل.

تماما، كمواقيت الصلاة، إن أحدا إذا قام ليرفع آذان العصر، مثلا، قبل موعده المحدد، فإن الناس لن تلتفت إليه، وسوف يكون أقرب للذى يؤذن، كما نقول، فى مالطه.

ولو رفع نفس الاذان، وبذات الكلمات، فى توقيتها الصحيح، قام الناس يؤدون فروض العبادة،

وعلى هذا الاساس، يعرف العالمون ببواطن النفوس، من أين تؤكل الكتف، ومتى يتكلمون، ثم يسكتون.. بحساب.

وزمان، أدرك بخيل، أن الإنسان يكون أقرب للعطاء، وهو ضاحك أو مبتسم، فالتزم العبوس والجهامة، كلما لمح أحداً ممن يبدو عليهم الطمع فى كرمه.

وكانوا يسألونه، فيفسر لهم سبب الغضب البادى على وجهه دائمًا، بأنه يخاف إذا ضحك أن ينتهز الخبثاء الفرصة، فيسألوه الاحسان فلا يملك فى هذه الحالة، إلا أن يعطيهم!

وكان الرجل، لا يتكلم، ولا يلاطف غيره، إلا فى توقيت يحدده هو، ويدرك مسبقا مردود الكلام فيه.

ولو تأملت حالك، لاكتشفت بسهولة، أن نصف مشاكلك، على الاقل، سببها كلمة قيلت هنا، وأخرى تسللت منك هناك، فى غير وقتهما المناسب.

ولقد بدا لحكيم عربى، ذات يوم، أن يسأل رجلا ممن تدرجوا فى سلم المناصب، والجاه، حتى قمته، .. يسأله عن الطريق إلى القمة.. كيف واتاه؟!

وسؤال الحكيم، كان له ما يبرره، لأنه لم يكن يرى فى الرجل، أية مؤهلات ترفعه إلى تلك المدارج العليا، التى صار إليها.

وكانت دهشة الحكيم كبيرة، حين رد عليه المسئول، بأنه وصل إلى مكانه، بل ومكانته، بالعلم، والعلم وحده.

وضرب الحكيم كفا بأخرى، وهو يرد عليه بأن هناك من هم أعلم بمراحل، ومع ذلك لم يصيبوا شيئًا مما أصابه هو.

واستحى الحكيم، حين رد الرجل بأن علمه قد أصاب مكانه الصحيح، وتوقيته المحسوب، وأن الآخرين الذين هم أكثر علما لا يعرفون متى يتكلمون، ولا فى أى موضع يسكتون.

ولو تلاحظ، فإن الإنسان «الحكيم» هو الذى يعرف هذه الفروق جيدا، ويمضى فى حياته على هداها، بحيث تكون حكمته مناصفة بين عقله ولسانه معًا.

والفرق كبير جداً، بين اثنين، يتكلم أحدهما فيعلو شأنه، ويفتح الاخر فمه، فيفتضح أمره.

والقول بأن المرء مخبوء تحت لسانه، ليس أصدق منه.

والرسول، عليه الصلاة والسلام، كان ينصحنا بما معناه أن نقول خيرا، وكلاماً له شأن.. أو نصمت.

قال عمر بن على:

إذا نطلق السفينة فلا تجبه فخير من إجابته السكوت

ولو صح منك العزم، أقللت من الكلام، وأكثرت من العمل، فقد تكلمنا كثيرا وبما فيه الكفاية، حتى صار الكلام كعدمه!

حاول.. وسوف ترى!

مكشوف عنه الحجاب.. عبارة يقولها الناس الطيبون، ليصفوا بها نوعًا من الرجال، يشتد إيمانهم ـ حسب الأعتقاد السائد ـ حتى لا يكون بين الواحد منهم، وبين السماء حاجز.

والبسطاء، خاصة فى الريف، يحذرونك من أن تخطىء فى حق واحد من هؤلاء، المكشوف عنهم الحجاب، ويحملونك مسئولية الخوض فى الحديث عنهم بشكل لا يليق.

والحجاب المقصود هنا، طبعًا، هو حجاب الغيب... والعلم بالغيب، حسب القرآن الكريم، شىء اختص الله تعالى، نفسه، به.

والذى ينكشف عنه الحجاب، يستطيع أن يسمع مالا يسمع الناس، ويرى ما لا يرون.

يستطيع أن يرفع يده، ويدعو الله فتستجيب السماء.

ويمكنه أن يتحدث مع الجان وأن يدير معهم حوارا، وأن ينقل عنهم أقوالا واراء.

وأبناء البلد يخلعون على مثل هؤلاء، لقبا له إيحاء دينى.. يشيرون إلى أحدهم قائلين: درويش!

والشىء العجيب أن ذات الكلمة «درويش» تستخدم أحيانا من جانب بعض الخبثاء بمعنى يكاد يكون على النقيض.

ولابد أن ضعف الايمان، داخل المرء نفسه هو الذى يدفعه إلى التعلق بأهداب واحد مكشوف عنه الحجاب، أو السير وراء رجل يقال عنه أنه درويش.

والخواء الذى يملأ الناس، فى عصور الضعف، يفقدهم اليقين الواجب، ويدفعهم للسعى وراء كل واحد يزعم أنه «درويش» أو حتى «قطب».

والامام على بن أبى طالب، له وجهة نظر وجيهة جداً، فى هذا الموضوع.

ويبدو أن رجلاً من رجال القرن الاول الهجرى قد ادهشه حجم الثقة التى كان يبديها الامام، فى كل ما يعرض له من أمور الحياة.

ونتخيل أن أحدهم قد ساله عما إذا كان الحجاب مكشوفا عنه، بحيث يتصرف بثقة واطمئنان هكذا.

وهذا التخيل قائم على عبارة قالها الامام ذات مرة ثم ترك السائلين والقادمين من بعد يفسرونها كما يشاء لهم الهوى.

قال: لو انكشف عنى الحجاب، ما ازددت يقينا!!

إلى تلك الدرجة، كان الرجل محتشداً باليقين؟!

وهذا الكلام ليس نظريا، ولا هو لعب بالألفاظ أو ضرب فى الهواء.

وكلمة «اليقين» لها معنى، لو ادركه الإنسان، ثم «عايشه» على النحو الذى كان عليه الامام أو حتى ما يقرب منه لاستراح واراح من اوجاع كثيرة.

لن يعرف القلق على المستقبل، ولا الندم على شىء مضى.

وسوف تكون ثقته فى حاضره وغده، كثقته فى أن اسمه: فلان!

ولكن المسألة فى حاجة لاحتشاد نفسى وعقلى كبير، وهى تستحق الاحتشاد، أى التهيؤ لها، أيا كان الثمن.

فحاول أن تجرب، وسوف ترى أن اليقين الذى كان يقصده الامام يعنى الامان الذى لا يعرف القلق.

ومن منا، لا يأكله القلق؟!

تمشى على استحياء

تخجل البنت، أن تعترف بأن قلبها يميل إلى «فلان»، ولو حدث هذا، اعتبره أهلها خروجًا على العادة، وتجاوزا للتقاليد المرعية..

وقد جرت الأمور، على أن الرجل يخطب لابنه، ثم نشأ مثل شعبى ينصحه بأن يفعل العكس، أى يخطب لابنته من باب أولى، ومضوا على النحو الذى وجدوا عليه اباءهم.

ونحتاج لألف سنة قادمة، حتى تستطيع البنت أن تعترف، وتقول، وتمارس حقها فى الاختيار.

وهى مسألة تتصل بالعقلية السائدة فى المجتمع، وتلك عقلية قد غطى عليها صدأ كثير، وفى حاجة لمن ينفضه بقوة..

ولابد أن ابنة شعيب، عليه السلام، هى اجرأ بنت فى تاريخنا.

ولو عدت إلى سورة «القصص» فى القرآن الكريم، فسوف تطالع حكايتها من الألف إلى الياء.

ولكن ما يهمنا منها، هو ما كانت تتصف به من جرأة وحياء معًا..

ومن الصعب جداً، اليوم، أن تكون البنت جريئة وعندها حياء.. وإنما على طريقتنا: إما.. وإما، ولا شىء فى الوسط.

إما أن تكون البنت «قطة مغمضة» لا علاقة لها بما يجرى حولها، ولا صلة لها بالدنيا. ولا شأن لها بما يدور بجانبها.. فتنشأ ـ هكذا ـ أضعف خلق الله انسانا.

والضعف هنا طبعًا. هو ضعف العقل والرأس والتفكير. وليس مجرد ضعف الجسم أو الجسد بوجه عام.

وإما أن تبلغ جرأتها حد الوقاحة. وتتبذل فى تصرفاتها وسلوكها. حتى يسقط قناع الحياء تمامًا. فإذا لم تستح. هى أو غيرها. فإن لها أن تفعل ما تشاء..

ابنة شعيب، كانت فى المنطقة الوسط، جريئة، وعلى حياء فى ذات الوقت..

وسوف تدهش جداً، إذا فهمت من قصتها، أنها ذهبت تدعو موسى عليه السلام، ليقابل أباها.

وقبل ذلك، كانت قد مهدت الطريق، واقنعت اباها بأن يكرم موسى.

وكان فى كلامها، اعتراف ضمنى، بأنها تود لو ارتبطت به، زوجة على سنة الله ورسوله..

وكان موسى قد انقذها، هى واختها، من مأزق تعرضتا له، فأسرعت هى تخبر أباها بما جرى، وتطلب منه أن يكافىء الرجل، وأن يجعل له موضع قدم فى بيتهم.

وفهم أبوها، عليه السلام، رغبتها، واحترمها، وأرسلها، بنفسها، تستدعى الرجل الذى اقتنعت به.

والقرآن الكريم يقول: «فجاءته احداهما تمشى على استحياء».

وجاء موسى وأخبره أبوها، أنه يريد أن يزوجه احدى ابنتيه.

ودخلا فى نقاش وعقد واتفاق. وبعده تم ما رأت البنت.. وما يخصنا من الموضوع كله، هو المعنى الذى تتركه القصة فى ذهنك. بعد أن تطالع تفاصيلها.. فالفتاة ابنة نبى. والذى اختارته نبى أيضًا.. ومع ذلك فلا أبوها ولا العريس ـ عليهما السلام ـ قد استغربا شيئًا من جرأتها فى التفكير أو الكلام. مادام الحياء هو الإطار الذى تزدان به البنت.

ولو جربت واحدة من بنات هذه الايام. أن تفعل شيئًا مشابهًا. فإن النتيجة معروفة.

ذلك. أن الرجال بيننا ممنوعون من التفكير وإعمال العقول. أو استخدامها. فما بال البنات والنساء؟!

نهرب منه.. إليه!

من وقت لآخر، نهرب من جحا اليه، ولا نجد واحداً يستطيع أن يحمل عنا، بعض الهم، إلا هو، وإلا الحمار الشهير الذى كان يصاحبه.

ولقد أصبحت مواقف جحا، من طول ما تكدس فوق كتفيه من رزايانا.. هى الأقرب ـ فوراً ـ إلى الاذهان، وأسمه هو الأسرع إلى اللسان، كلما قادتنا الأيام، إلى ما لا نتحمله ولا نطيقه، وإلى ما يذكرنا به..

وجحا، دون أن يدرى، كان يسلك مسلك العلماء، فى معامل الكيمياء، حين يعكفون على تجاربهم، ولا يبرحون المعمل إلى أن يثبت صحة كلامهم.

والتجربة، حين تؤكد صحة شىء ما، فإن الشك لا مجال له بعد ذلك..

وإذا كنت أنت اليوم، تشعر بأن المسائل كلها، تسير تحت شعار واحد، هو: اسراف هنا، وتقتير أى بخل شديد هناك، .. ثم يغيظك ما ترى، وتود لو استطعت أن تغيره، فتعجز وتسكت.. إذا كان هذا حادثا، فإن جحا رأى، وآله أن يسكت وقرر أن يدفع المسئولية عن نفسه، إذا ما جاء التاريخ بعد ذلك يحاسبه.

رفع صوته، وقال أن الظلم لا يرضى به الخالق ولا المخلوق، وأن العدل واجب، وأنه من الخطل والخطأ والخطر معًا، أن تضيق الحياة على قوم، حتى يهلكوا، أو يكادوا، ثم تتسع على غيرهم، بغير حساب.

ولقد ظل يرفع صوته، ويحذر مرة، وينذر مرات، وكاد طول لسانه أن يورده المهالك، ومع ذلك لم يعبأ بشيء.. إنه يتألم حين تقع عيناه على ظلم، ولا يعرف معنى الظلم ـ فعلا ـ إلا الذى ذاقه.

واعتبروه رجلا يهذى، ويعيد ويزيد واهملوه، حتى جاء يوم، وشعروا أنه خطر فعلا، وأن كلامه يمكن أن يحرك الناس.

ولكنه، أى جحا، رجل يعرف كيف يخرج منتصرا، وكيف يأخذ حقه بذراعه، وبلسان عدوه فى وقت واحد.

خرج يركب الحمار، وتحته حاجياته كلها، بعد أن قسمها على ذات الطريقة التى شكا منها فى البلد، وخرج بسببها.. فجعل القسط الأكبر فى ناحية، والاصغر جدا فى الناحية الاخرى، وهو فوقها، يحفظ توازنها.. وكان يتعمد ذلك، لغرض فى نفسه.

وأمام بيت الملك، نزل تأدبا ـ فى الظاهر ـ وسحب خلفه الحمار، ولم يكد يمشى خطوة واحدة، حتى سقط الحمل كله، فى الاتجاه الاثقل.

انحنى جحا، ورفع الحمل، واستبدل اليمين بالشمال، والعكس، ولكن بالأسلوب نفسه: ٩٠٪ من الحاجيات فى ناحية، و١٠٪ فى الناحية الاخرى.. وقبل أن يتحرك، مالت الحاجيات كلها فى الناحية الأولى، واستقرت على الأرض.

وعاد الرجل، غير يائس، يكرر ما فعل مقدما، ويبدل المواقع ويحاول..، وما يضعه على ظهر الحمار يسقط، ليعود ويرفعه من جديد.

وامرأة الملك كانت ترقبه، وتضحك من سفاهته ـ فى نظرها ـ فلما رأت أنه مُصر على ما يفعل دون جدوى، نصحته فى اشفاق بأن يساوى بين القسطين، حتى تستقر الاحمال ولا تضطرب.. وطلبت اليه أن يقلع عن السفاهة التى يصر عليها.

قال: والله يا سيدتى، لا اعرف من منا السفيه، أنا أم زوجك، فأنا لم اتجاوز ما تقولينه، فلما قلته.. قلتم أخرج من البلد.. فمن هو السفيه.. يا سيدتى؟!

.. ولو كانت كافرة!

التلميذ الخائب، متوسط الذكاء، فى فصل كل تلاميذه ضعفاء، يعتبر نابغة، مقارنة بهم.

وهو إذا حصل على درجات عادية جداً، فى امتحان آخر العام، ثم أقاموا له احتفالا هائلا، لأنه طلع الأول، أو من الأوائل.. إذا حدث ذلك، فسوف يبدو الأمر طبيعيا، فى هذه الحدود. حدود الفصل، أو المدرسة كلها على أقصى تقدير.

وإذا دخل فى مسابقة، مع تلاميذ آخرين، من غير مدرسته، فسوف يتداعى، ويسقط، وينكشف أمره.

وتفوقه، فى هذه الحالة، حالته بين رفاقه، لا يعود إلى نبوغه، بقدر ما يرجع لضعف الذين نشأ بينهم، أو دخل معهم فى سباق.

وتلك الصورة، حقيقة، معروفة حتى على مستوى القوى الكبرى، وعند التقاء جيشين، أو قوتين.

وفى التاريخ حروب كثيرة، جرى حسمها لصالح طرف منتصر، ليس لقوة فيه أبداً، ولكن لضعف الطرف المنافس.

تماماً كما نستدعى عبارة مشهورة، تمضى على ذات الوزن، وتقول: ليس حبا فى على، ولكن كرها فى معاوية.

والقياس فقط هنا صحيح، لأن كثيرين ممن وقفوا مع على بن أبى طالب، فى خلافه مع معاوية بن أبى سفيان، لم يكن بسبب حبهم للأول، ولكن - أساساً - لكرههم الثانى.

والخليفة الراشد الثانى، عمر بن الخطاب كان يحذر المسلمين من انتصار اعدائهم، بضعفهم هم.. أى المسلمين، وليس لاستعداد أو احتشاد الأعداء.

وكان يلاحظ أن المؤمن يخجل، ولكن غيره لا يستحى، فيكسب هذا «الغير» مساحة جديدة كل يوم، على حساب الخجل، الذى يتحول لضعف وخنوع.. والمفروض أنه قوة.

قال العز بن عبد السلام:

وليس أكثر من الظلم، ضعفا يسرى فى عظام أى مجتمع، حتى يهلكه عن آخره.

والدولة الأولى، حين تكون الجولة لها، فإن ذلك ليس بسبب ما يسودها من عدل، بقدر ما هو عائد للظلم الذى يشيع فى الدولة الثانية.

وفى كل مواجهة، تستطيع دائمًا، ومن هذه الزاوية، أن تقع على طرف ضعيف، لظروف من خارجه، وليست نابعة من داخله.

وفى كل حادث، حتى على مستواك الشخصى، لابد أن تفتش عن اسباب انكسارك ـ إذا وقع ذلك لا قدر الله ـ قبل أن تلتمس الأسباب عند الذى غلبًا عدا ذلك، هو دائما، حيلة العاجز كفرد، أو العاجزة كدولة!!

ثالث الثلاثة الكبار

الحمد لله، أنه ليس حيا بيننا، وأنه مات وشبع موتا، وإلا كانوا اتهموه بالجنون، وجعلوه ينهى حياته بيديه، وردوا عليه فى صوت واحد: أية موسيقى التى تتحدث عنها، والناس لا تجد ما تواجه به اصوات بطونها.

ويبدو أنه، أى الفيلسوف العربى إياه، كان متفائلا أكثر من اللازم، حيث اعتقد أننا يمكن أن نسمع أو نصدق كلامه، فى أن صلاح الحال يبدأ بالموسيقى التى تتردد على آذان الناس.

كان متفائلا جداً، لكنه ـ فى الحقيقة ـ كان واقعيا، يقول الصدق.

وهناك اختلاف فى تحديد شخصيته بالضبط، وإن كن بعض، أو بمعنى أصح أغلب الآراء تقول أنه الفارابى، ثالث الثلاثة العرب والمسلمين الكبار: ابن سينا، الفارابى، ابن رشد، على طريقة الثالوث اليونانى: سقراط افلاطون، ارسطو.

والذين رجحوا أن يكون هو قائل تلك العبارة استندوا إلى ما اشتهر به من مهارة وبراعة، غير مسبوقتين، فى ضرب الاوتار، لحد ـ وقد يكون فيها شىء من المبالغة ابكاء الحاضرين، ثم اضحاكهم، ثم «تنييمهم» وتركهم على هذه الحال.. نائمين بفعل موسيقاه.

وعبارته موجزة جداً، ولا تتجاوز خمس كلمات، ولكن معناها كبير يعرفه هو ويعرفه كل الذين يدركون فضل الموسيقى فى الارتقاء بالفرد.. والشعوب ليست إلا مجموعة من الافراد على كل حال..

كان يعتقد أن للقانون رجاله، وأن للتعليم خبراءه، وللفن ابطاله ونجومه.. ثم يطلب أن يتركوا له الامر فى الموسيقى.

والامر الذى يطلبه، هو أن يضع هو الموسيقى التى سوف يسمعها الشعب.. ولا تسأل بعد ذلك عن قوانين ولا تعليم ولا فن ولا غيره..

وهو طبعا، لم يكن يحط من شأن القانون أو التعليم، أو ما هو سواهما، لكنه مؤمن بأن الذى يسمع جيدا، موسيقى راقية، لن يخالف قانونا، ولن يتعثر فى تعليم أبداً..

فالموسيقى الراقية، إذا ما تشبعت بها نفس الإنسان، يصبح الشخص، من تلقاء نفسه، رافضًا لكل أشكال القبح، الشخصى أو العام.

وبطبيعة الحال، فإن أحداً لم يعطه الفرصة، لكى يجرب فكرته، رغم إيمانه الشديد، بجدواها ومفعولها معًا..

أنه فوق كونه موسيقارا له شأنه، فيلسوف عكف على دراسة، ما يمكن أن يلم شمل المجتمع، ولا يجعله مشتتا كل واحد يتمزق وحده، فى طريق.

والموسيقى عنده، كانت هى البداية، وهى الختام، وكما أن هناك رأيا يقول أن نوع الكتاب الذى تطالعه، يدل على شخصيتك، فإن الفارابى كان يرى أن الموسيقى التى يسمعها الشعب، مؤشر على مدى شقاء المجتمع، أو سعادته بحياته..

يكفى أن الموسيقى إذا ارتقت، زرعت فيك فضيلة السماع للآخرين، وعلمتك كيف «تسمع» لهم، وكيف تتكلم بهدوء، وتحكم بمنطق.

يكفيها أن تعلمك، أن تسمع جيداً، قبل أن تسارع فتتكلم عن غير علم.

قبله، كان أفلاطون قد يئس من امكانية اصلاح المجتمع ككل، فقرر - فى جمهوريته التى أسسها وتزعمها على الورق - أن يعزل الاطفال، فى سن العاشرة فأقل، عن الكبار، ليتعهدهم منذ الصغر، وينشىء مجتمعا منتجا عاملا مبدعا.

لكن.. لا أفلاطون تمكن من أن يحقق حلمه، ولا الفارابى كذلك استطاع.

ولو أن الأول عاش ليرى أطفالنا.. والثانى امتد به العمر ليسمع موسيقانا الحالية.. لكان الاول قد تجرع السم، كما فعل استاذه سقراط، اشفاقا على هؤلاء الصغار، ولكان الثانى، وهو منا وعلينا، قد طلق موسيقاه بالثلاثة.

أنه أقل واجب، كما نقول.

بالضبط.. هذا هو الفرق!

لا تنتظر خيراً، إذا كانت النشأة «مش ولابد» أو ليست على ما يُرام.

والذين قالوا، أنه إذا كان رب البيت بالدف ضاربا، فإن شيمة أهل البيت كلهم الرقص.. هؤلاء لم يبالغوا فى التعبير، وأنما اقتنصوا المعنى المضبوط.

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يطلب من أصحابه، والقادمين من بعدهم، أن يتجنبوا، حين الزواج، خضراء الدمن.

وكانوا يعودون إليه ويسألون عن «خضراء الدمن» مَنْ تكون.. وما إذا كانت امرأة يُخشى زواجها أو نوعا من الطعام من الأفضل تجنبه.. وكان هو يقول إنها المرأة الحسناء، فى المنبت السوء.

تماماً كما تقع عيناك على زهرة جميلة، فى مقلب قمامة ونفايات.

عندئذ، ليس لك أن تدهش، إذا ما أمسكت الوردة، فدميت يداك من أشواكها، التى نبتت لها، بتأثير المناخ العام، الذى شبت فيه.

تستوى فى ذلك، المرأة والوردة معا.

والأشواك المحسوسة، فى الوردة، تقابلها أشواك غير محسوسة فى المرأة، ولكنها أكثر عنفاً، وقدرة على الجرح، وإسالة الدم.

والذين سبقوا كانوا أكثر إدراكاً لهذه الحقيقة.

وفوق الادراك، كانت عندهم القدرة، على تحويل ما يدور فى الذهن، إلى أفعال وسلوك فى أرض الواقع.

وهذا، بالضبط، هو الفرق بيننا، وبينهم.

كان الواحد منهم، وخصوصا أصحاب الثراء، يلتمس لأبنه معلما، يتولاه منذ صغره، ويتعهده بما ينبغى لطفل، عليه أن يكون رجلا، له مسئولياته مستقبلا.

ولم تكن تلك المسألة، تشبه من قريب أو من بعيد، حكاية الدروس الخصوصية، التى يشقى الآباء فى سبيل اتاحتها لأبنائهم، ثم يفاخرون بذلك.

يفاخرون، مع أنها علامة مرض، وضعف فى عقل وتحصيل الطفل، أكثر منها سمة من سمات الصحة الذهنية.

والطفل الذى نشأ، على معلم، قديم، خرج من بين يديه، وهو يعرف الموسيقى والشعر والأدب والفقه والقرآن وعلومه!

والذى ينشأ على يدى المدرس الخصوصى، لا يكاد يحسن كتابة اسمه، فضلا عن أن يذكر شيئًا مما تعلمه، إذا انقضى الفصل الدراسى، ودار العام دورته.

ولذلك، ترى عشرات الألوف، من هذا الصنف، ولسان حالك يردد مع دعبل الخزاعى:

إنى لأفتح عينى حين افتحى على كثير ولكن لا أرى أحداً

ولا تقل إن الأعداد قد زادت، وأن الناس لا تكف عن الانجاب، فتلك حيلة العاجز، لأن هناك بلاداً، بلغ تعداد سكانها، قدر تعدادنا عشرين مرة

على الأقل، ومع ذلك يتطور التعليم، إلى الأمام، بنسبة تلاحق الزيادة فى السكان، بل وتسبقها.

يقول خبيث: ولكننا نتطور فعلا.

ويرد واحد أكثر خبثا: إلى الخلف.. تقصد؟

فيقول حكيم: بالضبط!! فنحن إذا خطونا خطوة للأمام.. رجعنا اثنتين!

لو تركها.. لعادت تسأله!

العادى جداً، أن تذهب أم العريس، تخطب العروسة من أمها، وتجس النبض أولا، قبل أن تقع الفأس فى الرأس!

والطبيعى، أن يجلس أبوه، إلى أبيها، يقرآن الفاتحة، لتبدأ حرب خفية، يجرى اعلانها يوم الزفاف.

والمعقول، أن يميل الولد، على أبيه، فى كسوف، ويقول بصوت هادىء، كأنه يعتذر، أنه معجب بالبنت الفلانية، وأنه يريدها على سنة الله ورسوله.

يفرح أبوه، على أن ابنه قد «بلغ» وصار رجلا، يطارد الفتيات، ويختار من بينهن واحدة استراح لها قلبه.

وتسأل أم العروس، ابنتها، عما تراه فيما جاء أبوالعريس يطلبه، فتستدير البنت فى حياء، ويحمر وجهها، وتزداد وجناتاها احمراراً، وتلوذ باحدى غرف الدار هاربة.. ومكسوفة معا.

ويفهمون من كل ذلك، أنها راضية، ومبسوطة، ولولا الملام، لأطلقت زغزودة طويلة، لها إيقاع أطول.. وتقاسيم تعلو وتهبط كما السلم الموسيقى.

ويجىء والد عريسها، يزور أباها، ومعه مجموعة من أقارب العريس.

والمطلوب منها، عندئذ، أن تدخل عليهم بالشربات، أو بالشاى، أو بأى مشروب.. المهم أن تدخل، وأن يروها رائحة غادية، هى تمضى على استحياء!

ويجوز أن تتعثر فى كسوفها، وأن ترتبك، فيقع الشاى من بين يديها، وتتكسر الأكواب، ويقول الجميع فى صوت واحد: فداك!

كل ذلك، عادى، وطبيعى، ومعقول.

ولكن العكس أن تذهب البنت بنفسها، وتقول أنها تريد «فلانا» من بين الشباب.

ساعتها، سوف تقوم قيامتها، باعتبار أن من مات، قامت قيامته!

ومع أن فى الريف، مثلا شائعا، ينصح الأب أو الأم، بأن يبادر كل واحد منهما، ويخطب لابنته وليس لابنه.. إلا أنه مثل شعبى أعرج!

فالابن، رجل، ويستطيع أن يفاضل ويفاصل ويختار، واذا أساء يتحمل مسئولية اختياره.

ولكن البنت، مَنْ ـ أصلا ـ يسمح لها بأن تختار؟

الأب فقط، هو الذى يختار، وهو الأدرى بمصلحة البنت.

والبنت، فى كل الأحوال، قاصر، ليس بإمكانها أن تضع عقلها فى رأسها، وتعرف خلاصها.

والأب ـ هكذا ـ يزرع فيها الخوف، بغير أن يدرى، فتخطىء هى الأخرى بغير أن تقصد!

ولو تركها، لعادت إليه تسأله، وتستشيره، وتطلب عونه، بعد أن تكتشف، بنفسها، أن الحرية مسئولية، أكثر منها حبلا متروكا على الغارب

يقرر.. وقبلها يفكر!

ليس أمكر، بين الحيوانات جميعًا، من الثعلب، يكفى أنه يستطيع أن يتماوت، ويخادع عدوه، ويقنعه بأنه ميت، وينجو بحياته فى خدعة، أو لعبة.. هذا يكفى.

ويقابل المكر فى الثعلب، الدهاء عند الانسان. أو قل أنه، أى الدهاء، هو الدرجة الأعلى، التى يصل إليها الداهية، بفضل عقله، ولو كان للثعلب عقل، بالتالى، لارتقى فى سلم المكر، وتحقق له من الدهاء نصيب.

وتستطيع أن تفهمها أكثر، بأن الداهية ـ وسوف تعرف كيف بعد قليل ـ لا يدخل فى مشكلة قط...، وإذا دخلها.. إذا.. فإنه يعرف جيداً، كيف يخرج منها، وهو يرفع يده اليمنى. بينما أصبعاه السبابة والوسطى منفرجتين، والابتسامة على وجهه... علامة النصر، وقهر الخصم.

ذلك شىء تعلمناه، ولانزال، كلما طالعنا طرفا من سيرة اثنين من دهاة العرب الكبار، هما: معاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص.

ولو كان فى تاريخنا ألف داهية، فإن معاوية يأتى رقم واحد، ثم يتلوه مباشرة عمرو.. مهما كان دهاء سائر الدهاة.

ولولا عمرو، وخدعته الشهيرة جداً، فى واقعة التحكيم، بين على بن ابى طالب، ومعاوية.. لولاه ما كانت الشام قد خلصت لمعاوية، وما كان هناك وجود لشىء أو كيان اسمه الدولة الأموية.

والملفت للنظر، أنهما كانا حليفين، ولم يكونا خصمين، ولا ندرى ما الذى كان يمكن أن يحدث، لو كتب الله عليهما أن يكونا عدوين، وأن يعمل كل واحد منهما على جبهة مواجهة للتى يعمل عليها الآخر.

ولو أن شخصا آخر، مكان عمرو، وقف فى مواجهة ابى موسى الأشعرى، الذى ناب عن على بن أبى طالب، فى التحكيم، لكان التاريخ الإسلامى قد اتخذ شكلاً مختلفًا تمامًا.

وهو شىء تصادفه كثيرا فى تاريخنا الحاصل، والمكتوب.. أقصد أنك كلما طالعت منه جانبا، وقعت على أمور كثيرة، تقف أمامها ثم تقول: لو كان كذا، ما كان كذا.. إلى آخره.

والذين يؤمنون بأن ما حدث، كان لابد أن يحدث، يأخذونها من قصيرها ويقولون فى حسم: هذا ما حصل.

وعمرو، كان فى حياته، يمضى على طريقة الثعلب، بمعنى أنه لم يتورط فى مسألة أبداً، إلا وخرج منها كما يتسلل الثعلب من معركة حياته وموته معا: لا يخسر شيئًا، ويكسب حياته فى الوقت ذاته.

وربما كان هذا هو الفارق الوحيد، والأساسى جداً، بين معاوية وعمرو.

وهو ما نفهمه من سؤال واحد، وجهه معاوية إلى عمرو، يوما، عن مبعث دهائه.

كان معاوية يريد أن يطمئن، على الموهبة التى وهبه أياها خالقه: عقل لا يخيب له تخطيط، ولا ينكشف له تدبير، ولا يطيش له سهم أبدا.

ولقد أجاب عمرو، بأنه ما دفعت به حوادث الأيام، إلى موقف، إلا وهو موقن بأنه سيخرج منه كما دخل: لا له ولا عليه..

ولكن ذلك لا يكفى معاوية، فالجرة، كما يقول عامة الناس، لا تسلم فى كل مرة، وهو لا يريد أن يتورط، أو يورط نفسه، ثم يسعى إلى منفذ.. إذ العقل يقول: ولماذا التورط من أساسه..

ومعاوية لم يكن يتورط فى مشكلة، ليس لأنه حريص جداً، ولا لأنه يمشى جنب الحائط، ولا لأن ذلك يأتى مصادفة.. انما هو عقل فى رأس كبير. عقل يعمل ويستعرض البدائل، ثم يختار ويقرر.

كأنها نقش على حجر!

تاريخك، يبدأ يوم تستطيع ذاكرتك أن تعى ما حولها، فتحفظه.. وتنتهى حدوده، عند الخط الذى تعجز الذاكرة معه، عن حفظ أو حمل شىء.

والرجل، إذا شاخ، وأوغل فى العمر، بدأت المعلومات والتفاصيل تتسرب وتتسلل من رأسه، حتى لا يكاد يذكر شيئًا.

والعجيب أن الشيوخ الكبار، إذا نسوا، فإن النسيان غالبا ما يتصل بالأشياء والوقائع القريبة، والقريبة جداً، ويمتد اليها دون غيرها.. أما البعيدة، التى تزدان بها جدران الطفولة وما حولها، فتظل هناك، ثابتة قائمة، حتى لحظة الرحيل.

والأولى، أن تنمحى الأشياء البعيدة، وتثبت القريبة.. ولكن العكس، هو الذى تمسكه الذاكرة.

ونحن نقول، فيما نتداول من أمثال شعبية يومية، إن التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر.

والنقش على الحجر، لايزول أبدا، إلا بزوال الحجر نفسه.

لذلك، فالذين يحفظون القرآن الكريم، مثلا، فى طفولتهم، يظل منقوش فى أذهانهم، يستدعون أياته وقتما يشاءون، ودون صعوبة.

وما يتعلمه الطفل فى صغره، يلازمة فى رجولته وشبخوخته، .. ويبقى. وتستطيع أن تتصور الذاكرة، فى ربيع الطفولة صفحة بيضاء غضة، تتقبل كل جديد، وتتشبع به فيدوم.

يحدث هذا على مستوى الفرد، والجماعة أيضًا سواء بسواء.

وذاكرة الجماعة، هى بالضبط، تاريخها الذى حفرته بما فعلت.

ولذلك قالوا إن التاريخ هو ذاكرة الشعوب.

والذاكرة، على المستويين، تحفظ الجيد والردىء، المحزن والمفرح معًا. واستدعاء أى من هذه المخزونات، راجع لارادة الفرد، وكذلك الجماعة.

وذاكرة الشعوب، فيها ما هو أسود، مؤسف، من الأفضل نسيانه، بشرط أن يكون درسًا له فائدته.. وفيها ما هو ناصع البياض.

ويحدث على مستوى الفرد، أن تقع له حادثة، فى طفولته الأولى، فتختزنها الذاكرة، ثم يأتى عليه زمان، يسيطر عليه هوس تلك الحادثة، ويصير الهوس كابوسا يطارده فى يقظته، ويفزعه فى منامه.

ويبدو الفرد عاجزاً، عن التخلص منه، أو حتى نسيانه.

ومع فارق التشبيه، فإن فى تاريخنا القديم، وتراثنا الطويل، مناطق فيها الكوابيس أكثر من الاحلام، وفيها الظلال الباهتة، المتداعية، أكبر من مساحتها مما هو حقيقة يقوم على أساس.

ورغم ذلك، ترسخ الظلال والكوابيس، فى تاريخنا، ولا تريد أن تفارق عقل الجماعة، وكأنها نقش على حجر.

والفرد الذى يحدث له شىء من هذا، ينصح الأطباء بعلاجه، ويتولونه بالمتابعة، ويقطع الفحص بأنه مريض، يرجى شفاؤه إذا استجاب لنصيحة الطبيب.

فليس من الممكن، ولا من الطبيعى، أن تصبح ذاكرتك، مصدر عذاب وشقاء لك، لا تستدعى إلا كل ما هو موجع مؤلم.

وبيننا، كما ترى، كثيرون، يلوذون بالمناطق القاتمة فى تاريخنا البعيد والقريب.

ولا يرون فى الذاكرة غيرها، مع أن هناك ما هو أفضل بكثير، وما هو صحيح ومريح.

وهذا المرض يبدو أنه من «النوع المزمن» الذى لا شفاء منه.

إلا هذا البيت!

كما أن البيوت أسرار، فهى أصناف وأشكال وألوان.

والذين قالوا أنها أسرار، قصدوا أن البيوت تخفى أكثر مما تبدى بكثير، وأن كل بيت قد انغلق بابه على ما يكفيه، أو ما يكفى صاحبه بمعنى أدق.

ويبدو أن الشغوفين بمعرفة تلك الأسرار، والمتطفلين، والفضوليين، لما يئسوا من الإطلاع على سر واحد، من تلك الأسرار، فضلاً عن معرفتها كلها، راحوا يشغلون وقتهم وأنفسهم بشىء آخر، وهو تقسيم البيوت تحت مسميات كثيرة، وكل مسمى له اسم، وله صفات تميزه عما سواه.

قالوا إن هناك بيت العدَل ـ بفتح الدال ـ وهو بيت البنت، بعد أن تفارق دار أبيها، وتستقر عند عريسها. وليس هناك أم، لا تدعو لابنتها أو بناتها، صباحا ومساء، بأن تراهن فى بيوت عدلهن جميعًا.. آمين!!

ولا نعرف معنى محدداً، لكلمة «العدل» هذه، ولكن هذا ما استقر بين الناس، وما تجرى به ألسنة الأمهات.

ونعرف أيضًا، أن هناك بيت العائلة، وهو الذى يجمع الأسرة كلها، حين يكون أفرادها صغارا، وحتى إذا شبوا، وتفرق كل واحد فى سبيل، وصار له بيته الخاص فإنهم من وقت لآخر، يحنون إلى بيت العائلة، ويجتمعون فيه أيام الأعياد والاجازات.

وقبل كل ذلك، أطلق الناس، والمتعبدون منهم بوجه خاص، على المساجد والجوامع، اسم: بيت ربنا.

وهكذا، تستطيع أن تمضى، لتحصر تلك البيوت، فلا تفرغ قبل وقت طويل وجهد أطول، لأن خبرة الأيام، وتجارب السنين، علمتنا أن نتخذ لكل بيت، يؤمه جمع كبير من الخلق، اسما يجعله فوق البيوت الأخرى.

وإذا كان كل بيت، مما احصيناها، ومما لم نذكرها، له شكل ورسم، ورأيناه وعرفناه، فإن بيتا واحداً، نسمع عنه، بعضنا عن بعض، من سنوات لا ندرى متى بدأت، ونضرب به المثل، دون أن يكون المتحدثون والمستمعون معًا، على علم بشىء مما يتصل به.

نقول دائمًا، وفى مواضع كثيرة: بيت جحا.

وجحا نفسه، يقطع كثيرون، أنه لم يكن له وجود من الأساس، وأنه شخصية خيالية، صنعها تعطش المظلومين إلى رجل يضعون على كاهله متاعبهم وألامهم، فلم يجدوا غير جحا المسكين، وحماره الذى هو أشهر حمار فى التاريخ.

ولا ينفى ذلك، أن تجد صوراً لجحا، أو لحماره، على أغلفة الكتب، وفى اللوحات التى تحكى عنه، فكلها تخيلات، وأحلام عقول تسعى إلى ما يريحها، ولو كان هذا الذى يريح من أوهام.

ولا عجب، إذن: أن يأتى بيت جحا، كصاحبه: لا مكان محدد، ولا زمان أيضًا، ولا معالم، ولا ملامح من تلك التى نعرفها فى غيره من البيوت.

ولكن الناس الطيبين، الذين رسموا جحا، وجعلوا له سمتا معينا، يستحضره المتحدث فى ذهنه، إذا ما دار الحديث حول جحا.. هؤلاء الناس، لم يتركوا القادمين بعدهم، يحلقون فى السماء حيارى، إذا ما دار الكلام، أيضًا، عن بيته، وليس عنه هو.

يكفيك، أن تفهم المناسبة، التى يضرب بها المثل بيت جحا، لتدرك عن يقين، أنه بيت شكله كذا، وصورته على النحو الفلانى.

هو بيت، تعمه الفوضى من داخله، بحيث إذا دخلته، أو صرت فى وسطه، تعذر عليك أن تفهم شيئًا على الإطلاق.. مستحيل!

وإذا كانت الصورة لاتزال بعيدة عن ذهنك، فانظر حولك، وفى أى إتجاه، وأى مكان، وسوف ترى صورة مصغرة، أو مكبرة، لبيت جحا.

أظنك، الآن، قد عذرت جحا، وأشفقت علينا!!

تمنى لو يشرب بقاياه!!

البداية، كما سوف نرى، كانت من زمان جداً.. بداية تأليه المسئول الكبير، وجعله فوق الناس، بل واقناعه بأنه ليس من صنف البشر، وبالتالى فكل شىء يفعله، أو يقوله، مقبول، ومعقول، وموضع ترحيب.

ويعز علينا جميعا، أن يكون الذى سن تلك السنة السيئة، شاعراً، ومثقفا، وعقلا، لا تستطيع أن تجادل فيه، ولا أن تنفى عنه موهبته العظيمة، ونبوغه البادى فى كل تراثه المكتوب.

ذلك الشاعر، نعرفه كلنا، وليس بيننا واحد، لم يقرأ له، أو يحفظ له بيتا، أو حتى نصف بيت كأنه قول مأثور، وفى كل الأحوال سمعنا باسمه، الذى هو كالعملة الذهبية، لا يفقد قيمته أبداً، ولا تنزل اسهمه مهما كان الشعراء القادمون من بعده، ومهما كانت قاماتهم واقدارهم واشعارهم.. بل ترتفع تلك القيمة.

وظاهر الكلام، مما يبدو، يشير إلى أبى الطيب المتنبى.

وما جرى بينه وبين كافور، حاكم مصر فى تلك الأيام البعيدة، أى قبل ما يقرب من ألف سنة، جرى شىء، بل أشياء تشبهه فيما بعد، ورأينا أكثر من «كافور» وأكثر من «متنبى» يرفع الرجل إلى السماء، ثم يهبط به فى سابع أرض!

ولسنا ضد أن يكون للمثقف، أو الشاعر، رأى فى المسئول، يخالف الرأى السائد، سواء كان رأيه حسنا أو سيئا.. المهم أن يكون هذا الرأى، عن

اقتناع وألا يتعرض للتحول بزاوية ١٨٠ درجة، فى ظروف أخرى، حين يرحل جار السوء.. الذى هو المسئول، أو حين يقع بينهما ما لا تحمد عقباه، ومالم يكن يتوقعه المثقف، أو الشاعر.

فالنتيجة الطبيعية لحدوث ذلك، أى تقلب الرأى من النقيض إلى النقيض، أنك تقع لكافور ـ مثلا ـ على صورتين مختلفتين تمامًا، فى مرآة المتنبى، التى هى أشعاره وديوانه.

صورة يبدو فيها، كأنه غزال، لا تملك عندما تراه، ألا أن تتغزل فى قده الممشوق، وقوامه الذى هو من عائلة أغصان البان، وبقية صفاته وأوصافه، التى ليس فيها شىء قبيح أبداً.. يستحيل.

وصورة ثانية، ينصح المتنبى الناس ـ بطريقة إياك أعنى واسمعى يا جارة ألا يشتروا عبدا، إلا والعصا معه، فالعبيد انجاس مناكيد، لا يصلحون بغير العصا.. وكافور واحد منهم.

والعبد، أى كافور، الذى لا يصلح شأنه بغير العصا، تهوى على أم رأسه، هو نفسه الذى ناداه أبوالطيب، بل ناجاه، وهو يقول:

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله..

فإنى أغنى منذ حين وتشربُ!!.

لقد كان أبو الطيب يتمنى لو أن هناك بقايا فى كأس كافور.. ليشربها هو!!

وتحار أنت ما بين العبد والعصا، وما بين أبى المسك، أيها بالضبط نطمئن إليه، ونصدقه، خصوصًا وأن الذى قال ووصف، عقل لا ترقى إلى مقدرته الشكوك، وتستحى أن ترد عليه كلامه.

وهكذا، تكتشف أن لجميع مسئولينا الكبار، وحكامنا السابقين. صورتين معاكستين ليست بينهما أية صلة.

أحداهما حين تكون الأمور عسلا على لبن، كما نقول.

والأخرى، حين تكثر فى السماء الغيوم.. سماء السلطة والمثقف.

ولذلك، ليس من الصعب عليك، أن تقع فى تاريخ كل واحد منهم، على ما يدينه ويشرفه فى الوقت ذاته.

وهذا مجرد مثال، من أمثلة أخرى لا حصر لها، تمتد بامتداد تاريخنا، وهى تجعلك تقدم الشك على اليقين، تجاه كل ما تسمع ـ اليوم ـ وما ترى.

يقين هذه الأم

أقف طويلاً، أمام باب أم موسى، عليه السلام.

وأمام قلبها، على وجه التحديد.

إنها أم من نوع خاص جداً، وليس من السهل أن تصادف، فى طول التاريخ، امرأة تشبهها.

وعدد الآيات، التى تذكرها، فى القرآن الكريم، يكاد لا يتجاوز أصابع اليدين.

ومع ذلك، فأنت إذا طفت بتلك الآيات، أو بواحدة منها، أو اثنتين، لا تملك إلا أن تتوقف، ثم تتأمل، وتسرح بخيالك فى أفق بعيد.

ونحن، فيما نخوض فيه من أمثال وكلمات مأثورة، نضرب المثل دائمًا، فى الحنان إذا ما بلغ مداه الذى ليس بعده متسع، بقلب الأم.

ولا نمل من القول، بأنه ليس هناك أحسن منه، ولا أقدر منه على احتضان الوليد.

وإذا ما سمعنا عن أم، ألحقت بطفلها أذى، قلنا على الفور: والله عشنا وشفنا.. أمهات آخر زمن.. لقد اقتربت الساعة.. إلى آخر تلك العبارات، التى تعبر عن حجم الصدمة فى قلب أية امرأة، يمتلىء بشىء غير الحنان والعطف.

وأم موسى، تعرضت لامتحان صعب، واختبار من المستحيل أن تتعرض له امرأة، وأم فى الوقت ذاته، ثم تخرج منه وعقلها فى رأسها..

إننا نعرف أن فرعون مصر، فى تلك الأيام التى سبقت بعثة موسى عليه السلام، قد أخبره العرافون، بأن طفلا سوف يولد، وأن هذا الطفل سوف يهدد عليه ملكه ويبيد حكمه معًا.

ومضى فرعون، يذبح كل الأطفال، ويئد المواليد فى المهد.

وكان من الطبيعى جداً، أن تخاف أم موسى وتبحث عن وسيلة تضمن بها الأمان، لوليدها موسى.

ولو أن امرأة أخرى، فى مكانها، ونصحها أبوها، بأن تخطف رجلها وتخبىء طفلها - مثلا - فى أقرب غابة، لنظرت اليه فى ارتياب وشك كبيرين، وقالت بتلقائية: سلامة عقلك.

وهذه الكلمة الأخيرة، معناها أن الغابة، ليست فى كل الأحوال، أكثر أمنا من دنيا البشر.

ولكن، فى المقابل، كان المطلوب من أم موسى أن تذهب بإبنها، إلى ما هو أبعد من غابة الحيوانات.. إلى البحر!!

والغابة، على الأقل، فيها أشجار وأغصان وجحور، وقد يتعلق الطفل بثدى حيوان أليف فينجو.

ولكن فى البحر.. المسألة تختلف تمامًا.

ومن المهم، بطبيعة الحال، أن نلفت النظر، إلى أن الأمر الذى جاءها بإخفاء موسى عن العيون، بالقائه فى البحر، قد جاءها من السماء، وبالتالى فهى لا تحتاج لغير اليقين فى الله، لتصدق أن البحر سوف يحميه.

غير أنها بشر، وامرأة لها قلب وعقل. عقلها كان يدور كالطاحونة، وقلبها كان يتعلق بموسى، وهى حائرة، وليس هناك وقت، فلابد أن تقوم حالا، وتضع وليدها فى صندوق، وتلقى به عند أقرب شاطىء.

ولبثت فترة، مترددة، خائفة، وحزينة.

تشاور عقلها، وتحاول أن تُسكت صوت وسوط قلبها، ما استطاعت.

وقامت، ومسكت أعصابها، وداست على قلبها، وجعلت يقينها فى الله، ليس بعده ولا فوقه شىء.

ومضى الصندوق، يتهادى، ويتقلبه الموج، وعيناها تتبعانه حتى اختفى أو كاد.

ولم يمض وقت طويل، حتى ارتد اليها الصندوق، وراحت ترضع موسى، وتحنو عليه.

إنها محنة أم، امتلكت اليقين.

رسالة من امرأة

أشعر بأن فى اعناقنا، جميعًا، حق عرب لامرأة أدانوها، وانعقدت المحكمة، وقررت عقابها، وانقضى الأمر، وكان سوء الفهم مصاحبا لها فى كل حياتها، رغم أنها امرأة رجل عظيم.

قالوا أنها كانت رفيق سوء، بالنسبة لزوجها، وأنها قد آذته طويلا، وفضحته أمام الذين يساوون، والذين لا يساوون ونكدت عليه عيشته، وكان هو يصبر عليها، ولا يبادلها أذى بأذى.

وحين أقول أننى أقصد امرأة سقراط، فسوف تشاركنى الاشفاق عليها وسوف تجد نفسك، ربما بغير تفكير، تساندها وتقف إلى جوارها.

ولسنا فى حاجة إلى المزيد، فيما يتصل بزوجها، فالنار التى هى على علم، والتى يصفون بها الذين بلغت شهرتهم الآفاق.. هذه النار تتصاغر حتى تنطفىء بجوار قامة سقراط، الذى يقف فى تاريخ اليونان فى صف وكل الذين هم سواه فى صف آخر.

ومن الجائز أن تقول، أن رجلا له تلك المكانة، لابد أن يواجه شيئًا ينغص عليه حياته، ولا فرق بعد ذلك، بين أن يكون الذى ينغص عليه، هو زوجته، أو هو جار سوء.

وهى فكرة قد تكون مقبولة، ووجيهة، لو أن المرأة كانت سيئة الأخلاق، أو قاصرة العقل، أو قبيحة المنظر.. إلى آخره.. من تلك المسائل التى لا يملك أمامها زوجها، ولا تملك هى أن تفعل شيئًا.

كل ذلك لم يكن موجوداً، ولا واراد، وسوف تكتشف، بعد أن تعرف سر شكواها أنها كانت كأية زوجة عصرية، لرجل شريف، لم يسرق، ولم ينهب، ولذلك لا يجد ما يأكله، ولا ما يسكت به شكوى امرأته من ضيق ذات اليد.

فإن كان هذا الرجل الشريف، واحداً، بل وحيدا بين علماء عصره، كانت المصيبة أكبر، والمشكلة أعمق، وامرأته عندها ألف حق، لولا أنها أخطأت الطريق.

أخطأته لأنها كان يجب أن تتجه بشكواها، إلى غير زوجها، وبمائها القذر، الذى قيل أنها كانت تلقيه فوق رؤوس سقراط وضيوفه.. إلى الذين لا يضعون فى عيونهم حصوة ملح، ولا يلتفتون إلى ما يعانيه أعلمهم واعقلهم، وارجحهم فى أى ميزان.

وكان عندها ألف حق، حين صارحته، مع ضيوفه، ونحن معه، أنها كأمرأة، لن تأكل فلسفة ـ وهى بضاعة زوجها ـ ولن تلبس كلاما ـ وهو سلاح سقراط الوحيد ـ ولن تسد الحوارات التى قضى الرجل عمره فيها، يعلم بها الناس.. لن تسد رمقها، ولن تسكت صوت بطنها، وهى تصرخ من الجوع.

ويبدو أنها كانت تريد أن ترمى الينا رسالة محددة، بمعنى معين، ثم ضلت الرسالة الطريق، واسأنا فهم ما وصل منها، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

كانت، فيما يبدو لى، تريد أن تقول، أن الأمة التى يكون فيها ألف سقراط أو ممن يشبهونه، ثم لا يجد المواطن العادى فيها، أى فى الأمة،

راحته، ولا قوت يومه، فإنه لا فائدة من علم، ولا جدوى فى أى كلام آخر يقال عن تقدم أو علو شأن، أو ارتفاع قيمة، سواء كان ذلك للأمة بوجه عام، أو لعلمائها بوجه خاص.

والبلد الذى يعيش فيه سقراط ـ وهو هنا مجرد نموذج ـ مرهقا، فقيرا، معدما، يكاد يسأل الناس، ولا يعرف بماذا يرد على امرأته، حين تطلب أن تأكل فلا تجد فى بيتها شيئًا.. هذا البلد، ما هى قيمته بالضبط، بين البلاد؟!

ألا ترى أن لها حقا، وأنها قبل كل ذلك قد فضحت الذين يزعمون الشرف، ثم يموت فيهم العلماء ـ العلماء عن حق ـ كمدا؟!

هى.. وليس غيرها.. بداية الطريق!

قبل أن نعرف القنابل والبوارج، والسلاح المحمول جواً وبحراً.. إلى آخره.. كانت السيادة للسيف، اشهر أدوات الحرب عند العرب.

بجواره، أدوات أخرى كثيرة، كانت، كالنبال والسهام والحراب وغيرها.. ولكن بريقه، كان هو وحده، الذى يضع حداً للقتال، وتميل كفة النصر حيث يميل.

وبعيداً عن البريق، والجراب، والغمد، والمقبض، والطرف المدبب، والحد القاطع.. بعيداً عن كل ذلك، من اجزاء وصفات سيف العرب، تبقى القوة والسيطرة، والتوجيه والتحكم، لحامله، وليس للسيف نفسه.

أنه ليس إلا قطعة من نحاس أو حديد، طوعتها يد خبيرة ماهرة، فصنعت منها ما تراه فى صورته النهائية.. ولكن لا اليد التى صنعت، ولا قطعة الحديد قبل أن تتولاها يد الصانع، ولا حتى بعد ذلك، قادرة على أن تفعل شيئًا فى سلم أو حرب، إلا إذا كانت اليد التى تتلقفه، لتلعب وتلاعب به، تعرف كيف توجهه حيث ينبغى.

وأشهر سيف ـ مثلا ـ فى تاريخنا، له أسم ورسم، كأنه «بنى آدم» يعرف بإسم ينفرد به، بين سائر أفراد أسرته.

وتلك عادة قديمة عند العرب، فى اعطاء الاشياء ـ وليس الاشخاص فقط ـ أسماء تتميز بها، بل وتكتسب شهرة أيضًا.

و«ذو الفقار»، هو أسم أشهر سيوف العرب على الاطلاق، ويقال إنه ظل فى بيت الأمام على بن أبى طالب، حتى أنتهى إلى أحد خلفاء الدولة الأموية.

وعلى طريقتنا، فى التهويل تارة، والتهوين تارة أخرى، أضفينا على السيف، وبمعنى أدق على «ذو الفقار» تحديدا، صفات وملامح خيالية، أسطورية، صدقها البعض، وفهمها البعض الآخر، على سبيل المبالغة والتجاوز.. لا أكثر.

ومن بين ما قيل عن «ذو الفقار» هذا أن حامله لا يدخل معركة، ثم يهزم أبداً.. لابد أن ينتصر.. أليس معه ذو الفقار؟!

طبعًا، نؤمن بأن هناك شيئًا أسمه الحظ، أو الفأل الحسن، الذى يصاحب الاشياء والاشخاص على حد سواء.

وكثيرون جداً، يتفاءلون بوجود أشياء محددة، أو اشخاص معينين، معهم فى المواقف العصيبة، لا لأى سبب، إلا لأنهم «يتفاءلون» بوجود هذا الشىء، أو ذلك الشخص، ويرون أن الحظ دائما يحالفه..

تلك أمور نفهمها، ويتفهمها حتى الذين لا يؤمنون بالحظ، رغم أنه وارد فى القرآن الكريم.

ولكن الحظ، كوم، كما يقول العامة والفصحاء معًا، والتدبير والإحكام كوم آخر.

وذو الفقار اكتسب اسمه من شكله، فقد كان فى صورة فقرات متتابعة، تشبه العمود الفقرى فى الجسم، وأخذ شهرته من اليد الأولى، التى أمسكت به، وهى يد الامام.

والامام كان قد كسبه، فى معركة مع رجل جاهلى، لم ينفع مع غشمه وغبائه، لا ذو الفقار ولا غيره من سيوف الأرض.

ولو وقع ذو الفقار فى يد واحد مجنون، لقتل به نفسه.

ومع ابن ابى طالب، والذين قاتلوا به من بعده، تحقق له من الصيت ما يكفى.

والسيف فى يد العربى، كان إذا ارتفع، هدأت نفوس، وعادت حقوق إلى حيث يجب.

وأبوالطيب المتنبى، لما جاء يفاخر، جعل سيفه ضمن دواعى الفخر والاعتزاز.

ولقد فقدت سيوف العرب، صفاتها الاولى، واحدة بعد أخرى، وصار العجز التام، صفتها الوحيدة.

وليس من الممكن، أن تستعيد ما فقدته، إلا بيد لها عزيمة اليد الأولى.. العزيمة فقط، هى بداية الطريق.

آخرهم.. فعلاً!

نشعر، من طول ما نحن فيه، من هم عظيم، وغم ثقيل، أننا نغوص فى المشاكل، حتى آذاننا، عن عمد، وقصد، وسبق إصرار معًا.

ونكاد نشعر أيضًا، عن يقين، أننا نتفنن فى «تخليق» الأزمات، إن أمكن.

وعبارة «سبق الاصرار» عند خبراء الجريمة، معناها أن الشخص خطط وأعد، ودرس مكان الجريمة، وظروف مسرحها، عن وعى كامل.

ولسنا، فى حياتنا اليومية، أفراداً وجماعات، بعيدين عن ذلك أبداً.

وأهل مكة، قديما، كانوا أسبق الناس، فى العمل بمثل شعبى عتيق، يوصى بإعطاء العيش لخبازه.

فأساس ما يخنقنا من أوجاع ورزايا، أن الخبازين - بالمعنى المجازى - هم آخر الذين يتعاملون مع رغيف الخبز.. آخرهم فعلا، وليس قولا..

ولك أن تجرب بنفسك، وتسأل واحداً، من عابرى الطريق، عن عنوان شارع أو حارة فى مكان قريب.

سوف تكتشف العجب، حين يأبى كل واحد، ممن تلقاهم، إلا أن يفتيك، عن غير علم.. المهم أن يقول شيئاً، وأن يظهر بمظهر ابن البلد، العليم بدقائق وتفاصيل الحى والحارة معًا..

فالشهامة القديمة، قد انقلبت «فهلوة» بقدرة قادر، ولم يعد أحد يريد أن يضع لسانه فى فمه، مادام لا يعلم شيئًا.

والقول المأثور، الذى معناه، أن من قال لا أعلم، فقد أفتى، صادق لأبعد مدى، خصوصًا فى هذا المجال.

ونعود إلى أهل مكة، الذين نحتوا عبارة من أصدق ما يمكن أن تسمع أو تقرأه.

قالوا: إن أهل مكة، أدرى بشعابها.

وشعاب مكة، هى دروبها وحواريها وجبالها ووديانها.. أى التفاصيل الصغيرة للمدينة.

ولم يكونوا، طبعًا، يقصدون مكة فى حد ذاتها، ولا كانوا يريدون أن يستعرضوا قدراتهم على اللعب بالألفاظ، أو اقتناص المعانى.

كانوا يريدون القول، بفصيح العبارة، أنه ليس أدرى ولا أعلم بالشى من أهله، وأنه - بالمقارنة والقياس والعقل معًا - ليس أقدر على التعرض لأمور الدين. على سبيل المثال، إلا أهله أيضًا، وأنه ليس أقدر على تشخيص الأمراض، والخوض فى مسائل العلاج والشفاء، إلا الأطباء الدارسون كذلك.

وهكذا، كانوا هم أيضًا، أسبق أهل الأرض جميعًا، إلى إرساء قاعدة ما نسميه اليوم بالتخصص.

ويقينا، لم تكن مكة ـ حتى لو افترضنا أن العبارة مقصودة لذاتها ـ لم تكن سهلة، ولا صعبة المداخل والطرق، إلى الدرجة التى يصعب على غير أهلها، معرفة السبيل اليها، ثم المضى فى داخلها.

أكثر من هذا، عليك أن تبادر ـ على سبيل التجربة ـ بفتح الكلام حول موضوع عويص، فى حضور عدد لا بأس به، ممن لا علاقة لهم به على الاطلاق.

وسوف يصدك كل واحد منهم، برأيه، دون أن يكون مؤهلاً لذلك، ودون أن ـ وهذا أهم وأخطر ـ تطلب منه شيئًا.. إنه يتطوع، هو ورفاقه، بالحديث والفتيا، لوجه الله.

عندى، بعدما قرأت، سؤال حائر: إلى من، كان أهل مكة يتوجهون بعبارتهم تلك، إذا كان هذا هو حالنا؟!

ثم نسأل، بعد كل ما ترى وتسمع، عن سبب ما يجرى لنا وبنا؟!

.. هل عندك جواب أو تفسير جديد؟!

ثروة.. وثورة!

صعب على الواحد أن يزهد الحياة رغم أنفه، وليس باختياره ورضاه.

وهو - عندئذ - لا يجد ما يأكله، فيقرر أن يزهد صنوف الطعام كلها، يخادع نفسه، وليس من الزاهدين فى شىء.

فالزهد الحقيقى، معناه أن تكون - مثلا - صاحب مال كثير لا ترتاح اليه، وتمضى فى توزيعه على أصحاب الحاجة والمساكين.

وليس مطلوبا منك وأنت شاب أن تطلق الدنيا بالثلاثة، وتسعى لالتماس الآخرة، فتغالط نفسك، وقد تخسر الاثنتين معًا.

وصدمة الأهل تكون كبيرة، إذا احسوا أن ابنهم ينسحب من المجتمع، ولا يخالط الناس، ويغرق فى العزلة، ويجد أن البعد عن الكل غنيمة!

والفيلسوف اليونانى افلاطون فعل شيئًا من ذلك. لكن زهده كان من نوع خاص، لقد القى كل ثروة أسرته، فى البحر، واشترى بدلا منها العلم ومجالس العلماء.

ولم يكن هناك إلا مجلس علم واحد، فى تلك السنوات السابقة على ميلاد المسيح عليه السلام، بما يقرب من اربعة قرون.. هو مجلس سقراط.

ولابد أنه شىء جميل، ومدهش فى الوقت ذاته، أن يخير شاب ما بين الثروة والثورة، فيختار الاخيرة.

وثورته لم تكن عنيفة، ولا فيها رصاصة واحدة، ولا تعترف بالدماء أبداً، سبيلا إلى التغيير، أو الاصلاح.

ولو شاء أن يحشد الجيوش، بفلوسه، لكان قد فعل، ولكن لأن فى رأسه عقلا، فقد أدرك أن الكلمة الصادقة، والهادئة فى نفس الوقت، لها تأثير يفوق قوة السلاح بمراحل.

وسقراط، صاحب مجلس العلم الوحيد، والذى علم القادمين من بعده كيف يدور الحوار، وكيف يكن مفيدا.. هذا الأستاذ كان سعيدا جداً، لأن تلميذا نجيبا سوف يخرج من بين يديه.

وأول علامات النجابة، أن يزهد المال، ويفضل عليه العلم والعقل، ولأنه اتجه فى هذا الطريق، طواعية، فلابد أنه يحبه، وحب الشىء أول خطوة للتميز ثم النبوغ فيه، هو ما جرى فعلا، حين نجح مسعى سقراط، وقام له خليفة مقتدر، من بين الحواريين، يقدس العقل، ولا يطمئن إلا إلى اصحابه.

وكما ترى، فإن زهد التلميذ، فى ثروة الأب، كان زهدا إيجابيا، بمعنى أنه جعل العقل فوق المال، واراد أن يعرف ويتعلم، ويحاور، لا أن ينغلق، ويرى فى الدنيا شرا، وفى أهلها مرضا ينبغى الفرار منه.

ولو عاش لفلوسه، واكتفى بأن ينميها، ويزيد فيها، لكنا قد خسرنا إماما من أئمة العقل، ولم نكسب شيئًا من ماله.

ومن الغريب أنه لم يفسح للمال، ولا لأصحابه، مكانا فى دولته، أو جمهوريته، التى تخيلها على الورق، وكان منتهى أمله أن يجدها متحققة فى ارض الواقع.

ولا نعرف شكل، ولا نظام تلك الدولة، لو كان حلم الرجل قد تحقق، ولكن المؤكد أنها الدولة الوحيدة، التى تخلو من المشاكل، على الورق، وعلى الارض أيضًا، لو كتب الله لها أن تدب فيها الحياة.

والسبب نعرفه، وهو أن كل مسئوليها من الذين يرفعون العقل فى السماء، ويقيسون على احكامه، ومنطقة، كل أمر.

والدولة التى يحكمها عقل، لا يمكن أن يكون فيه خلل أبداً.. فإذا قامت على غيره، كانت النتيجة هى ما تراه حولك.

انقطع صوته.. ولم يسمعه أحد!

المؤذن، ليس من الضرورى، أن يكون فى مسجد، ولا أن يقوم فى جامع، ولا أن يكون داعيا إلى الصلاة.

وهو، فى العادة، رجل يرفع صوته، لينبه إلى أن موعداً قد حل واقترب، وأنه، أى الموعد قد أوشك أن ينتهى ويمضى، ليصير تاريخا، وأن على أصحاب الشأن أن يتداركوا أنفسهم.

والمنادى، الذى كانوا يطلقونه فى القرية، قبل أن تكون هناك ميكروفونات وغيرها، ليلفت نظر الحاضرين والغائبين معًا، إلى شىء ما.. هذا المنادى، فى حقيقة الأمر، مؤذن، يرفع صوته إلى الذين يهمهم أن يكونوا على علم بما سوف يجرى، فيأخذوا حذرهم.

ويوسف عليه السلام، عندما أراد أن يختبر إخوته، أخفى شيئًا فى أمتعتهم، ثم اتهمهم بأنهم سرقوه.

وموضوع يوسف عليه السلام طويل جداً، ولكن ما يهمنا نحن فيه، أن الرجل الذى أرسله يوسف يطلب من إخوته أن يخرجوا ما أخذوه، كان اسمه: مؤذن.

ويبدو أن تكرار العبارة، فى ديننا، خمس مرات كل يوم، هو الذى جعل الاسم أكثر ارتباطا بالرجل الذى يرفع أذان الصلاة.

وقبل اختراع وسائل تكبير الصوت، كان مؤذن الصلاة، يبحث عن أعلى مكان، ويقف فوقه، ثم يؤذن، ليسمعه الجميع، والذى يريد أن يجعل الناس على علم بما يجهلونه، كان يطوف شوارع القرية، ويرفع صوته ويقول ما يريد.

فالمفروض، فى كل حالة، أن المؤذن ـ بكل معانيه وليس فى حالة الصلاة فقط ـ يرفع صوته ليحذر وينذر، لا ليستعرض جمال صوته، ولا إيقاع نبراته وهو يمد فى الحروف، ويتوقف، ثم يواصل.

فإذا رفع مؤذن الصلاة ـ مثلا ـ الأذان ثم لم يذهب أحد، ولا تحرك واحد ممن سمعوا، فإن جهده وأذانه قد راحا سدى، وذهبا بغير جدوى.

ومؤذن الارياف، الذى كان ينادى لأمر غير الصلاة.. كان يضيف عبارة من عنده، فى آخر الكلام، وهى أن على الحاضر أن ينقل ما سمعه إلى الغائب، بمعنى أنه قد اعذر من انذر، وأنه ليس بعد السماع، والمعرفة، عذر.. إلى آخره.

والمحاسبة، أو الحساب، واجب ومفروض، إذا صار الإنسان على علم بالشىء، ثم لم يتقدم خطوة.

ولكن.. أشهر مؤذن، انقطع صوته، ولم يسمع له «بنى آدم» واحد، هو مؤذن مالطة، الذى نضرب به المثل، فى المواقف العابرة المشابهة.

وإذا قلنا إن فلانا، يؤذن فى مالطة، فالمفهوم عندئذ، أنه يقول ويعيد ويزيد، دون أن يستجيب انسان، وأنه من الأولى أن يوفر جهده وصوته.

ولا نعرف، لماذا مالطة، على وجه التحديد؟

هل لأنها جزيرة، وسط البحر، إذا وقف الشخص يؤذن فيها، سنوات طويلة، فلن يصل صوته إلى أحد؟!

هناك جزر أخرى، كثيرة، فلماذا اختار الذين صاغوا المثل، تلك البقعة، على وجه الخصوص.. وجعلوا فيها رجلا استبد به اليأس.

يقال لأنها أقرب إلينا، نحن العرب، وبما أن واضعى المثل، منا وعلينا، فقد وقع اختيارهم عليها، وجعلوها سيئة السمعة إلى الأبد.

ولكن مالطة، لم تعد وحدها هى المشكلة، فغيرها بلاد كثيرة ـ وليست مجرد جزر ـ لا يحرك أهلها ساكنا، مهما بلغ صوت وشأن المؤذن.

ولو بعث الله الرجل الذى قام «بتخليق» ذلك المثل الشهير، حيا بيننا اليوم، لأدرك عن يقين، أنه قد ظلم مالطة ومؤذنها، إلى حد بعيد المدى.

لا حب.. ولا غرام!

تمر أمامك، فى حياتك، وحياة غيرك، صور كثيرة، بعضها تنساه، وبعضها تعتبره كأنه لم يكن.

وقد تسمع عن طرف من تلك الصور، وترى بعينيك طرفا آخر، ثم تنسيك الأيام، الطرفين معًا.

ولا نعرف من الذى أوصى الناس، بأن يكذبوا كل ما يسمعون، ويصدقوا نصف ما يرون.. طبعًا حتى يثبت العكس.

والصورة التى سوف نتوقف أمامها، الآن، سمعنا عنها، وقد يكون بعضنا رآها مصادفة، فلم تلفت نظره، ولا رأى فيها شيئًا فريداً يستأهل طول الوقوف أو التأمل.

وهى أقرب إلى الذين يعيشون فى القرى، وعلى أطراف المدن، أو بالقرب من خيام البدو بوجه خاص.

والرجل الذى أخذته تلك الصورة، فرواها لنا، لم يكن ليفعل ذلك، لو لم يكن قد عاش ومات مع الأعراب فى عمق الصحراء.

إنها صورة، سوف تشغلك لفترات طويلة، وسوف تجدها لا تفارق رأسك، لأن لها، فى الحقيقة، معنى مؤلما، إذا جاز للمعانى أن تكون أو توصف بالألم.

إننا نعرف أن الجمال، أو الإبل، هى الوسيلة الوحيدة للنقل، والتنقل، بين قبائل البدو، حتى شاعت اسماؤها وصورها، أى الأبل، فى حديث آبائنا القدامى، وخصوصًا الشعراء منهم.. أن بعضهم قد أفرد قصائد طويلة، يتغزل فيها، فى حُسن وبهاء الناقة التى هى كما قالوا: سفينة الصحراء..

وبعضهم راح يخطب ود حماته، ويطلب يد ابنتها، فوقعت ناقة العروس، فى غرام جمل العريس، وتقرر أن يكون الفرح فرحين!

قال: وأحبها، وتحبنى، ويحب ناقتها بعيرى!

ولكن الصورة إياها، لا فيها حب ولا عشق ولا غرام، ولا «كلام فارغ» من هذا الصنف أبداً.. على رأى أبناء البلد الظرفاء.

فالرجل لاحظ أن البعير، أى قوافل الابل، قد تحمل عبوات الماء، وتقطع بها مسيرة شهر أو أكثر، ويقتلها الظمأ، ولا تستطيع أن تروى عطشها، أو تنقذ حياتها من الجفاف الذى يحاصرها، رغم أن الماء فوق ظهورها. محمول!!

أى أنه ليس أقرب اليها من الماء، ومع ذلك فهو يكاد يكون محرماً عليها، لأنه «محجوز» لآخرين.

والطبيعى جداً، أن تهلك الناقة عطشا، مع ما هو معروف عنها من قدرة على مقاومة العطش، فليس فى مقدورها، وهى حيوان لا يعقل، أن تمد يديها أو رجليها وتشرب.. لابد أن يسقيها صاحبها.

وهذا بالقطع، ما غض الرجل بصره عنه، وشغله الجانب الآخر من الصورة.

قال:

والعيش فى البيداء يقتلها الظمأ

والماء فوق ظهورها محمول

وحرف الكاف، الذى جاء أول الكلام، يوضح أنه لم يكن مهموما بالعير، فى حد ذاتها، وإنما هو يشبهها بطوائف من البشر، يقودها حظها إلى أن تقف نفس الموقف، وإلى المصير ذاته.

يصبح خير البلد، حكرا على فرقة بعينها، وحراما على بقية الفرق، وهم جميعًا، أبناء بلد واحد.

أو يصير الحال إلى ما وصفه أمير الشعراء: حرام على بلابله الدوح، حلال للطير من كل جنس.

ويعرف الخير كله، طريقه إلى فئة محدودة، ومحددة، ولا يحيد عنها.

ويموت الناس كمدا، والماء أمام اعينهم.. محمول.

رسالة من عريس!

عندنا ولع قديم، بالتهويل والتهوين معًا، دون أن يستدعى الأمر ذلك.

...والتهويل، من شأنه أن يجعل المشكلة، أكبر مما هى عليه، فى الحقيقة.

كما أن التهوين، يطمئنك، ويجعلك تستهين بما هو، فى الواقع، يستأهل المواجهة.

والمبالغة، بطبيعتها، تفقد الشىء بكارته ومعناه.

وطريق التجاوز، فى القول والفعل، سواء كان بالتهويل أو بعكسه.. هذ الطريق طويل، بدأه الشعراء والأدباء العرب القدامى، ثم اقتفى أثرهم عامة الناس، فلم تعد المسألة فيها غرابة، ولا هى تثير الدهشة.

بل لقد وصلنا حد وضع قاعدة لذلك، فقلنا إن: أعذب الشعر أكذبه.

يعنى أننا نستعذب الأشعار، ونتذوقها، كلما امعنت فى الكذب والمبالغة، والادعاء بما هو غير موجود.

والناس العاديون، يقولون أحيانا، أن فلانا يجعل من الحبة قبة.

والطريف أنه مثل شعبى شائع، يقال للمدح تارة، وللذم تارة أخرى.

وعندى واقعة قديمة، أذكرها كلما وقعت العين على موقف مشابه. وبطله هو المعتضد، الخليفة العباسى المشهور، الذى عقد زواجه على قمر الندى، إبنة خماورية، حاكم مصر.

ولسنا فى حاجة، اليوم، إلى الاشارة لقصة زفاف قطر الندى إليه، وما كان فى ذلك الزفاف، من مبالغات فى الاحتفال والاحتفاء بالعروسين، أقلها أن الطريق ما بين القاهرة «بلد العروس» وبغداد، «بلد العريس» ظل مضيئاً طوال الفترة التى قطعته فيها العروس، من مصر إلى العراق.

حتى حفل الزفاف ذاته، بلغ فى التجاوز درجة لا يتصورها عقل، لولا أن حكاياته كلها مكتوبة ومسجلة.

وكان من الممكن، أن يقام حفل لهما فى بيت أبيها، ثم حفل آخر فى بيت أبيه، وثالث فى الطريق، ويكون فى ذلك كفاية.

وكل هذه التفاصيل، رغم أهميتها، لا أقصدها. وإنما أتوقف أمام رسالة قصيرة، طلب المعتضد من كاتبه ـ وكان لكل حاكم فى تلك الأيام كاتب يشبه المتحدث الرسمى اليوم ـ طلب أن يكتبها لأبى العروس، ليطمئنه على أن ابنته فى الحفظ والصون، وأنه لن يمسسها سوء أبداً.. أليست فى بيت المعتضد؟!

ولقد كان فى إمكان الكاتب، أن يمسك بالورقة والقلم، ويكتب ما يجده فى نفسه فعلا، ليس ما يتمنى أو يتوهم أنه يجده.. فإذا فعل ذلك، جاء الكلام طبيعيا صادقا، يصدقه العقل، وتتقبله النفس.

ولكنه، راح ينكت رأسه فى الحائط، ويفكر ويرهق عقله، حتى أوحت إليه نفسه، فكتب ما معناه أن البنت كأنها وديعة، انتقلت من يد يمنى إلى اليسرى.

واليدان المقصودتان، طبعًا، هما يدا الأب، والد العروس، ثم يدا المعتضد.

يقول أنها وديعة، تلقفتها يد من يد فلا خوف عليها.

ولكن الأب، لما أطلع على الرسالة، غضب جداً، وكدت تحدث أزمة، تؤدى إلى الطلاق.

فالوديعة، من شأنها، أن ترد إلى صاحبها يوما، وإذا لم يردها الذى أخذها، فهو متهم فى أخلاقه.

ونحن نفهم، طبعًا، أن الكاتب كان حسن النية، وأنه لم يقصد أن ينكد على العروس ووالد العروس معاً.. ولكن متى كان حسن النية، وحده، يكفى للاعتذار.

هل هى فضيلة حقاً؟

المصرى، له وجهة نظر، فى مواجهة شرور الحياة، ومصائبها، ومشاكلها.

ومن بينها، جار السوء، الذى لا طريق أمامك، تجاهه، إلا أن تتعامل أو تتعايش معه، فى كل الظروف.

ووجهة النظر هذه.. مريحة جداً، وسلسة جداً، لولا أن فيها سلبية غير مبررة، وهروبًا من الوقوف مع المشاكل وجها لوجه.

إنك، فى الوقت الذى تجد فيه، عبارة شائعة تقول، إن «النبى أوصى على سابع جار» تجد أيضًا، عبارة أخرى، ليست منسوبة إلى النبى طبعا، وهى تنصحك بأن تصبر على جار السوء حتى يحدث أحد أمرين:

إما أن يرحل جارك السوء، فترتاح منه تمامًا.

وإما أن تدركه مصيبة، فيريحك أيضًا، فهو فى كلتا الحالتين: راحل!

المهم، فى الموضوع كله، أن تصبر.. إلى متى؟! لا أحد يدرى.. أو بمعنى أصح حتى يحدث واحد من هذين الاحتمالين.

والطريف فى الأمر، أن معنى الجار، قد تطور وتشكل، وأخذ أشكالا وصورا مختلفة، أخرها الجار الذى يجاورك - بالمعنى الحرفى - فى بيتك!

وأنت، مثلا، لو شكوت من ظلم وقع من رئيس فى العمل، انشقت الأرض عن عشرات ممن يرددون على مسامعك، هذا المثل الشائع.. بإعتبار أن رئيسك الظالم، ما هو إلا جار سوء!!

وهو إسلوب، رغم ما فيه من رغبة فى تجنب المشاكل ووجع الدماغ، وإلقاء العبء كله على الأقدار، تتولى عنك حل مشاكلك مع جارك... رغم كل ذلك إلا أن فيه خضوعا، واستسلاما عجيبا، وتخفيا خلف حائط الصبر الذى تتسع قاعدته للجميع!

ومعناه، فى النهاية، أنه ليس مطلوبا منك أى شىء، لإصلاح ما هو قائم من أوضاع متردية - إذا أخذنا المثل بمعناه الرحب - وأن التفاعل أو التعامل مع هذه الأوضاع، وليس من شأنك، إنما هو شأن قوى أخرى، سوف تتولى هى المسألة نيابة عنك!

طبعًا، لا ننكر حقيقة تلك القوى الأخرى، التى هى الأقدار، ولا نقلل من شأنها أبداً، وإنما الحكاية أن هناك نقطة وسط، ينبغى أن نلتقى عندها معها، بحث نقطع نصف الطريق، وتقطع الأقدار نصفه الآخر.

بإختصار، يكون لنا دور، بالعقل، وبالمنطق، وليس بأى أسلوب آخر، فى «التعامل» مع جار السوء، أيا كان شكل وكيان هذا الجار.

والذين عندهم غرام، بتأصيل جذور ما نتكلم عنه، يزعمون أن جريان النيل، من زمان، هادئا مستمرا، بغير انقطاع أبداً، قد علمنا ذلك، وزرع فينا فضيلة الصبر!

وهى فضيلة لا تجدها فى الشعوب، التى تنشأ فى صحراوات، أو بين جبال، وفى أحضان وديان.

وهى فضيلة لا تجدها الشعوب فى الحالتين.

ولكن حتى النهر، النيل أو غيره، الذى يجرى فى هدوء، يأتى عليه وقت، يفيض ويغضب، ويعبر عن هذا الغضب، بغير الجريان العادى.

والغضب لا يكون من فراغ، وإنما تبقى له دواعيه.

والحاصل أن النيل لم يغضب من زمان طويل.. ولا نحن!

ولا تسأل عن الدواعى، لأنها حاضرة ومكثفة!

نواطير مصر.. وثعالبها

المرض، إذن، قديم، ومتوارث فيما يبدو، وله جذور وأصول، تمتد ـ على الأقل فيما نحن بصدده الآن ـ إلى مافوق الألف بخمسين عامًا.

عمره، بالضبط، ١٠٦٩ من السنين، وهى المدة التى انقضت على رحيل الرجل الذى أدهشه فى ذلك الحين، القرن الرابع الهجرى، ما لايزال يدهشنا حتى اليوم.. إنه أبوالطيب المتنبى.

وكل بيت من أشعار ذلك الرجل الفارس، حكاية لوحده، وبناء متفرد، وإطار يتسع لأكثر من معنى.

والمرض الذى أقصده، عبارة عن ظاهرة، اكتشف أبوالطيب، فى تلك الأيام البعيدة، أنها قاعدة، وغيرها استثناء، مع أن المفروض هو العكس.

وأبوالطيب، لم تطل إقامته بمصر، ومع ذلك، كان من السهل عليه، أن يكثف ما رآه، فى صورة من أعجب الصور، التى تطالعها فى أشعاره.

قال:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها

فقد بشمن وما تفنى العناقيد

وقبل أن نفهم المعنى الذى يقصده، لابد أن نعرف أن كلمة نواطير تعنى الحراس، وأن «بشمن» المقصود بها أن الثعالب ظلت تأكل حتى انسدت وانصدت نفسها، ولم يعد فى بطنها متسع لأى مزيد، وأن عناقيد العنب، أو

أى شىء آخر، مما يؤكل، كان فى مصر أكواما بعضها فوق بعض، فلا العناقيد تفنى أو تخلص، ولا الثعالب تكف عن الأكل.

ولو كان الأكل، الذى يقصده أبوالطيب، بالشرع والحلال، لما كانت هناك أية مشكلة.

ونحن نفهم، طبعًا، أن الثعالب، ليست مقصودة فى حد ذاتها، كحيوانات، فى الاطار الذى يصور فيه أبوالطيب، ما كان يجرى فى مصر، أيام أن وفد إليها.. إنها أى الثعالب، مجرد رمز، للبنى آدميين، الذين كانوا يدبون على ضفاف النيل، فى تلك الأيام.

ومادام الأمر فيه حراس نائمون، وثعالب تمرح وتجرى براحتها، وعناقيد ليس لها آخر، فالمسألة أوضح من الشمس.

والذى كان يحير أبا الطيب، أن الثعالب ـ اللصوص ـ قد أخذوا ما يكفيهم، ويكفى أولادهم وأحفادهم، ومع ذلك لا يتقون الله فى مصر، ويكفون عن الأخذ بالشمال واليمين.

لم يكن هناك أى مبرر، لأن يمضى الثعلب منهم ـ فى غيبة الحراس ـ فى الاغتراف من خير البلد، بغير رحمة.

لقد شبع على الآخر، ونفسه لم تعد تتقبل المزيد، ولكن يبدو أن البحر يحب الزيادة، كما نقول.

لقد مات أبوالطيب عام ٣٥٦ من الهجرة، وبيننا وبينه ١٠٦٩ من السنين، ومن يومها، والثعالب تسطو، رغم أنها قد «بشمن».. ومن يومها

أيضا، والنيل يجرى، والخير معه يجرى، وأهل مصر يعيشون - رغم كل ذلك - ويأكلون.

وكنا نتمنى، لو زاد أبوالطيب، وشرح لنا، كيف نامت نواطير مصر.. هل نامت من فرط التعب والإجهاد، أم أنها قد تم «تنويمها» عن عمد وقصد، لتتحرك الثعالب كما تشاء.

هل نام الحراس، وهم غير راضين عما ترتكبه الثعالب، أم أن التواطؤ كان قائما وموجوداً.

هل كان الأمر كذلك. أم أن الحراس كانوا هم أنفسهم الثعالب؟!

المشى فوق الماء!

طلع العاشق وليا من أولياء الله، دون أن يدرى. ولا نعرف مَنْ منهما نصفه بعدم الدراية، هنا، هل هو العاشق، أم ولى الله؟!

ولابد أنك تعرف، أن الشاعر القديم، كان لا يتصور أن العاشق يمكن أن يموت. بالمعنى المجازى وليس الحرفى للموت طبعًا.. أى أن الذى يعشق، لابد أن يبقى حيا، بين الناس حتى ولو «مات» ورحل عنهم بالجسد.. روحه التى عشق بها، تكفى.

والعشق فى كل الحالات، هو الحب الذى يصل إلى مرحلة الوجد. ويتجرد فى الوقت ذاته، عن المصلحة والغرض.

وأولياء الله، المخلصون، بفتح اللام وكسرها معًا، هم الذى يحبون الله، لا طمعا فى الجنة، ولا خوفا من النار.. إنهم يحبونه لذاته.. يحبون التسامى فوق كل الكائنات والمخلوقات.

ولذلك، يعتقد بعض الناس الطيبين، عن يقين، فى أن الواحد من اولياء الله، يستطيع أن يخترق العادة، بالفعل وليس بمجرد الكلام.

يستطيع مثلا أن يشفى المريض بغير دواء ولا جراحة وأن يسافر بغير وسيلة مواصلات، وبغير أن يخضع لمقاييس الزمان المعروفة بيننا نحن.

ويشيع خصوصا فى الارياف وبعيداً عن جو المدن وصخبها، أن «فلانا» يمشى فوق الماء.

وإذا سألت عن «فلان» هذا فسوف تجد أنه شيخ من الواصلين، فى نظر الناس على الاقل، وأنه من «ناس زمان» الذين لم يجرب عليهم أحد كذبا، ولا خيانة لعهد أبداً.

ويقابلك الرجل البسيط، ويروى لك فى براءة وصدق، أن «فلانا» الذى هو من أولياء الله أيضًا، يفرد المنديل فوق سطح الماء، ويعبر البحر عليه، من شاطىء لآخر.

وتسأله: هل رأيت؟

ويجيب: الذين رأوا قالوا.

وتطلب منه ألا يغرق نفسه فى هذه الامور، وأن يدعها لأصحابها، والا يرددها كثيرا، فيغضب وينصرف عنك.

والحمد لله، أن هذه الحالات لا نسمع عنها إلا مرة كل سنوات، وأن اصحابها يمكن حصرهم جميعًا على اصابع اليدين، بحيث بقيت فى إطارها الواجب والمطلوب.

والبهاء زهير، وهو شاعر عربى قديم، كان يقول للذين يزعمون العشق أو الحب ما معناه.. أسمع كلامكم اصدقكم.. «أشوف» أموركم استعجب.

قال:

فلو صدق الحب الذى تدعونه

واخلصتم فيه مشيتم على الماء

وبطبيعة الحال، فإن المشى على الماء، ليس مقصودا بحرفيته، لأن لكل شيء قوانينه، وقوانين الطفو معروفة، وارشميدس وضع أسسها من آلاف السنين، عندما قفز من «البانيو» فى ذلك الزمان، وهو يردد كالمجنون وجدتها.. وجدتها.. وتلك قصة أخرى طويلة.

ولا نشكك طبعًا، فى قدرة أولياء الله، فاعتقاد الناس فيهم واعتقادهم فى انفسهم، أن الله قد يمنحهم بعض عطاياه، التى هى من قدراته.

ولكننا، ننظر اليها من زاوية مختلفة تمامًا، وهى زاوية الصدق والاخلاص فى العمل، أيا كان هذا العمل عشقا أو غير عشق.

فالصدق فى الحب، جعل الرجل ـ تجاوزا أيضًا ـ يمشى فوق الماء، دون أن يغوص أو يغرق.

وإذا كنت تعرف السحر، فإن الصدق مفعوله أقوى.

ملعونة فى كل أرض!

لعبت الفلوس بعقل شاعر منافق، فجعلته فى لحظة واحدة، يهدم مابناه العرب جميعًا فى قرون طويلة، ويصف الجود الذى لقيه، هو وزملاؤه، من الفضل بن يحيى، الوزير البرمكى الشهير، بانه قد ترك الناس كلهم.. شعراء!

فقبائل العرب كانت تحتفل وتقيم عرسًا كبيراً، إذا ظهر فى إحداها شاعر، أو شاب ينبىء بان ربة الشعر سوف تدركه، وكانوا إذا توسموا خيرا فى شاب من هؤلاء، لم يتركوه لقانون الصدفة، وإنما عشوا به إلى واد معروف ومشهور فى جنوب الجزيرة العربية، اسمه وادى عبقر.

وكانوا يعتقدون أن فى هذا الوادى نفرا من الجن، يركبون الشاعر من إياهم، أو يتكفل كل جن يشاعر ما، فيلهمه الأشعار، ويظل يوحى إليه بما يقول فلا تسقط أسنانه، ولا تلتوى الحروف على لسانه.

ولم يكن من الممكن للجن، أن يلقى الشاعر، إلا إذا ذهب الأخير إلى الوادى، ومكث فترة غير طويلة، يعود بعدها وقد تلبسه عفريت من الجن، وصار شاعرا للقبيلة تفخر به، وتدفع به إلى سوق عكاظ فيما بعد، يرفع ذكرها بين قبائل العرب.

ولم يكن أحد يعرف، كيف يلتقى الجن بالشاعر، ولا كيف يركبه أو يتلبسه، وإنما هو اعتقاد ساد عندهم، وصادف حاجة نفسية عند الشاعر، الذى إذا عاد تفجرت موهبته كأنها عين تفجرت بالماء، فجأة، وسط صحراء لاشىء فيها غير الرمال تمتد بغير حدود.

وخلف هذه الحكاية، معنى كبير كان يقصده العرب، وشيء محدد كانوا يرونه «لازمة» لابد أن تقترن بالشاعر.

كانوا يرون فى ذلك، إشارة كافية، إلى أن الشاعر لابد، أولا، أن يمتلك الموهبة التى تؤهله لنظم الشعر، ثم يتلقى فيما بعد، تدريبا قاسيا، وهو تدريب كان يتكفل به فى ذلك الوقت، وادى عبقر.

ولكن يوسف بن الحجاج، حين اطلت عليه طلعة الفضل بن يحيى، بجوده وكرمه المعهود، جعل الناس ـ كلهم شعراء، فأى انسان، وأى أحد، إذا توافرت له الفلوس، صار شاعرا، حتى اننا نجد بين كيس الدنانير المشهور، فى الأدب القديم، وبين شاعرية الرجل، أو عدمها، علاقة لاتخيب!!

أكثر من هذا، أن يوسف بن الحجاج أيضًا، كانت بينه وبين هارون الرشيد يومًا، جفوة، خشى معها أن يغضب عليه هارون، فينكل به، وفى ذات الوقت أمر الرشيد رجاله ألا يدخلوا عليه أبداً، يوسف بن الحجاج.

وقد احتال يوسف، كى يصل إلى الرشيد فلم يستطع، ولم يجد سبيلا أفضل من التربص له على جانب من طريق، عرف أنه سوف يمر به، ولم يكد الرشيد يقترب من مكمن يوسف، حتى انشقت عنه الأرض، والقى بنفسه أمام ناقة الرشيد وهو يصيح باعلى صوته: أغيثا تحمل الناقة أم تحمل هارون، أم الشمس أم البدر أم الدنيا أم الدينا ؟!

ملعونة تلك الفلوس، التى أفسدت.. فبدأت بالشعراء، قديما، وانتهت بالذمم والضمائر!.

ليس عيباً!

مصيبته خفيفة، العريس الذى اكتشف ليلة الزفاف، ان عروسه ليست هى التى خطبها، وأنهم قد زفوا إليه امرأة أخرى، لعلها أختها، ليس لها نصيب من جمال، ولا عندها مال، ولا أى حاجة أبداً، وقد سخر من نفسه، ومن الأقدار التى ساقت إليه عروسه تلك، فى ليلة من ليالى المحاق فى شهر القمر، فكان محاقا كله ذلك الشهر!

وليالى المحاق، هى التى يكون فيها القمر شاحبا، لا يكاد يضىء، ولا يكاد ينبعث منه ضوء شمعة!

مصيبته خفيفة، لانه لو كان قد سمع بما جرى لغيره، لهانت عليه بلواه، ولكان قد اقتنع بما قسم الله له، وارتضى عروسه تلك زوجة.. باعتبارها قسمة ونصيب!

أما «غيره» هذا، فهو رجل من العرب مسكين، أراد أن يكمل نصف دينه، ونصحه بعض أصحابه بأن فى عائلة فلان، نساء جميلات، مؤدبات، تستحى الواحدة منهن ان تنكشف على النساء فما بالها مع الرجال؟!

ولم يكذب الرجل خبراً، وأسرع يخطب إحدى بنات الأسرة التى أشاروا عليه بها، ولما جلس يتفق على المهر و«القايمة» وخلافه، كان والد العروس صريحا معه، وأخبره أن ابنته خرساء!

ولم يجد العريس شيئًا فى ذلك، لسبب بسيط جداً، وهو أنه فهم حكاية «خرساء» هذه، على جانبها الحسن، مما كان شائعا بين العرب القدامى، وهو

أن «الخرساء» أحيانًا تعنى المرأة الحكيمة، قليلة الكلام التى لا تنطق بحرف، إلا حيث ترى ضرورة لذلك.

وقد وافق العريس التعس، وهو يعتقد أن امرأته قليلة الكلام وكفى، وأنها لن توجع دماغه بكثرة الحديث، خاصة وأنه كان يبحث عن امرأة من تلك النوعية.

ولم يكد الرجل يختلى بها، ليلة الزفاف، حتى صدمته وهى تشير بيديها، وتستعين بصوتها الحبيس وهى تجاهد أن تشرح له ما تريد.

وكاد يغمى على العريس، ليلة دخلته، سارع إلى والديها، يستغيث مما وجد، ويطلب الطلاق بأى ثمن، فليس عنده صبر، ولا طاقة للحديث مع خرساء، فضلا عن أن يقضى عمره كله معها تحت سقف واحد!

صحيح أنه لا اعتراض على قضاء الله، ..لكنه لم يفهم من وصف أبيها لها أنها «خرساء» وقت الخطوبة، أنه يقصد المعنى حرفيا.

وأفهمه أبوها، أن الطلاق مستحيل، لأن الخرس ليس من العيوب التى يستحيل معها الزواج، كما أنه ليس عاهة توجب التفريق بين الزوجين.

واحتكم الطرفان إلى رجل دين صاحب ضمير، فكان رأيه من رأى والد العروس، وعاد العريس إليها مرغما، راضيا غصبا عنه، بما كان!!

أما الشىء العجيب، فهو أن الرجل قد جاهد ألا ينجب منها، خشية أن يأتى الأبناء وفيهم شىء مما اصاب الأم، فلا تكون له عندئذ طاقة على احتمال.

ورغم حرصه على عدم الإنجاب، إلا أنها قد انجبت منه ـ والقصة حقيقية ـ ثلاثة ابناء كانوا من خطباء العرب جميعًا، وكان إذا وقف واحد منهم يتكلم فى جمع من الناس، فكأن الحكمة كلها قد استقرت على طرف لسانه!

ويبدو أن الرجل قد ندم كثيرا، على ما كان منه فى حق امرأته، فانشد يقول وكأنه يعتذر: وإن بنى الخرساء أمطار شتوة، إذا العام أزرى بالبخيل المزند!!

ومعنى الكلام، أن أبناء الخرساء بوجه عام، كأمطار الشتاء، إذا ما كان العام عام قحط، ظماء يتهافتون قطرة الماء.

هذا ما حدث.. ولله فى خلقه شئون!

لم يكن بين امرأتين!

وصلة «ردح» من نوع راق جداً، وليست من تلك النوعية، التى نعرفها، نسمع عنها فى الحوارى والأزقة.

وسوف استخدم كلمة «ردح» فى هذا المقام، مضطراً، لأنها هى التى تقرب المعنى إلى الجميع، وإن كانت بطبيعة الحال، لا تليق فى مجال الحديث عن قطبين من أقطاب العرب والمسلمين، هما ابن رشد، وابن زهر، الذى عاش أيام ابن رشد، ولم يكن يقل عنه قامة ومكانة.

والردح، فى العادة، نفهمه على أنه يجرى بين النساء، وبوجه خاص نساء الاحياء الشعبية، حين تشمر كل واحدة عن اكمامها، وتستخدم يديها وتعبيرات جسمها، فى حشد كل ما يرفعها، ويهبط بالطرف الآخر إلى أسفل السافلين.

وقد يسمونها «معايرة» أو «تلقيحا» بمعنى أن امرأة إذا أرادت أن تغيظ ضرتها، أو «عدوتها» فإنها تلجأ لاسلوب: إياك أعنى واسمعى يا جارة.

كلمة هنا، وكلمة هناك، بطريق غير مباشر، يسمعها الخصم، ويفهم أن الكلام موجه إليه، ولكن ساعة الجد، لا يستطيع أن يثبت ذلك على وجه اليقين.

شيء من كل ذلك، وغيره، جرت به الأيام، بين فيلسوف قرطبة، ابن رشد، وبين ابن زهر، وهو رجل فقيه كبير، كان يسكن اشبيليه احدى مدن الاندلس «اسبانيا» فى ذلك الزمان المنقضى، قبل ما يزيد على ٧٠٠ عام.

ولم تكن اشبيليه، بأى حال من الاحوال، تقل عن قرطبة، لاشهرة ولا قدرة على إنجاب العظماء.

ولذلك كان إذا التقى إثنان، واحد من هذه، والاخر من تلك، فلابد أن يخرج كل منهما ما فى جعبته ويفخر ويفاخر.

ولكن كانت هناك مشكلة، وهى أن كل مدينة، لها شأنها، وقيمتها، وقدرها.. غير أن شأن قرطبة كان فى طريق.. وشأن اشبيليه فى طريق آخر تمامًا.

وهذا هو محور «المعايرة» إن جاز التعبير، التى دارت رحاها بين عالمينا الكبيرين.

فقرطبة، مركز للعلماء والمفكرين، والشعراء وأهل العلم والأدب والكلمة. ممن علا صوتهم وصيتهم، حتى بلغ السماء.

واشبيليه، كانت أرضا للطرب.. ولا أريد أن أزيد على كلمة «الطرب» هذه كلمة واحدة أخرى، لأنها فى حد ذاتها معبرة جداً، عما يراد قوله من ورائها... إن هناك كلمات، فى لغتنا العربية، مكتفية بذاتها، بحيث لاتحتاج إلى شرح ولا تفسير، بل انك قد تفسد معناها، إذا رحت تحصى معانيها.. وفى مقدمة تلك الكلمات: الطرب.

التقى القطبان، فيلسوف قرطبة، وفقيه اشبيليه، وكأنهما نجمان اصطدما فى فضاء الكون، لقد احدث لقاؤهما دويا هائلا، وحفظوا عنهما عبارة واحدة نطق بها كل واحد منهما، فى معرض الكلام عن المفاخر.. ثم مضيا.

قال فيلسوف قرطبة أنه إذا مات مطرب من أبناء اشبيليه، وارادوا بيع كتبه.، لم يجدوا لها سوقا رائجة غير قرطبة.

وتلقى فقيه اشبيلية الطعنة ـ تجاوزا ـ ثم رد باحسن منها، وقال انه إذا مات مطرب من ابناء قرطبة، ورغبوا فى بيع آلاته، لم يجدوا طريقا غير طريق اشبيليه!

هذا ما جرى، وهو شىء جميل كما ترى، ولكنه مؤلم فى ذات الوقت. ومصدر الألم فيه أننا إذا اردنا أن نداري خيبتنا، لجأنا ـ دائما ـ إلى الماضى، نتكىء عليه.

.. كان!!

المناصب، دائمًا، مطمع ومطمح لكثيرين. ولا أحد يفكر فى «معنى» أن يكون صاحب منصب. إنما التفكير ينصرف كله، إلى الموقع ذاته، وما يجلبه من مزايا.

هذه المزايا، من السهل أن تتحول إلى رزايا، إذا انسانا السعى المحموم نحو تقلد المناصب، تبعاتها ومسئولياتها.

وعندنا أمثلة كثيرة، فى تاريخنا، تشير إلى أن أصحاب العقول، كانوا يهربون من المناصب، ويرون فيها مغرما، أكثر منها مغنما.

وليس هذا الكلام من قبيل التحليق فى الخيال، ولا هو اغراق فى المثالية أو الرومانسية، إن علماء كثيرين، رفضوا أن يتولوا أى منصب، وبعضهم ادعى الجنون، حين إشتدت عليه الضغوط، وخصوصًا إذا كانت المسألة تتعلق بمنصب قضائى.

فعندئذ، يصبح الامر أكثر حساسية، وتصبح مسئوليته أثقل، وتبعاته أخطر.

والامام أبو حنيفه، على ما كان عليه من علم وفهم، عاش حياته كلها، يرفض أن يتحمل مسئولية القضاء بين أى أثنين فى خلاف بينهما.

وكانت له وجهة نظر، لا يتفهمها، ولا يدرك معناها، الا القضاة الحقيقيون، أصحاب الضمائر الحية، الذين يستشعرون معنى الظلم، وخطورة أن يذهب برىء الى السجن.

وكل الذين سمعوا منه وجهة نظره، أو قرأوها، احترموه جدا، وراوا أنه على حق.

والمثال الذى كان يضربه أبو حنيفه، لكل سائليه، عن سبب تعففه عن

المناصب، أو عن منصب القضاء بوجه خاص.. هذا المثال يوضح إلى أى مدى، يكون حجم الاغراءات التى يواجهها القاضى.

فالقضاة عنده، كانوا ـ كالسباحين فى البحار ـ أنواع ثلاثة:

رجل يجيد السباحة، فهو ماهر بارع، فى ضرب الامواج، ومقاومتها.

وأخر بين بين، يعوم مرة، ويغوص مرات.

وثالث ليس له من الامر شىء، ما أن ينزل البحر، حتى يستقر فى القاع.

وعلى رأى أبى حنيفه، فإن السباح الأول، تغريه طاقته، وقدرته، فيأخذ البحر طولا، أى يسبح بالطول، وليس بالعرض من شاطىء لاخر، ورجل هذا شأنه، لابد أن يتعب فيغرق.. لابد.. فالبحار بالطول ليس لها آخر.. أو بمعنى أدق لها آخر يفوق قدرة الإنسان، ولو كان من النوع «السوبر».

والنوع الثانى، يعاند، ويقاوم، ولكن مصيره.. أيضًا، إلى الغرق!

...والثالث، غرقه مؤكد منذ اللحظة الأولى.. انه لا يعرف ألف باء السباحة، ومع ذلك يلقى بنفسه فى الماء.

والسباحة هنا، طبعًا، مقصود بها القضاء بين الناس. ودرجة اجادتها، فى هذه الامثلة الثلاثة يقابلها مباشرة، مدى قدرة كل قاض على مقاومة الاغراءات التى يلقاها، وعلى مواصلة عمله كما ينبغى، وكما هو مفروض.. والمفروض شىء، بينما الواقع شىء مختلف تماما.

وأبو حنيفة كان على ثقة ويقين، بأنه من النوع الأول، ومع ذلك احتاط، ورفض أن يحمل فوق كتفيه، ما لا طاقة له به.

كان للمناصب قدسيتها واحترامها، وبالتالى لحقوق الناس.. نقول ـ مع الأسف ـ كان!!

بالورقة.. والقلم!

أراح الحكيم العربى، القديم، دماغه، من حيث أتعب الناس أنفسهم، وأرهقوها فى غير فائدة... أراحها، حين أقر راضيا، بأن الله قد قسم الارزاق، بين عباده، كما قسم نور البصر فى عيونهم، فجعل من بينهم الأعمى... وزرقاء اليمامة.. وبينهما الأعشى.. وذو البصر العادى!

ونقول اراحها راضيا، لأنه ـ فى الحقيقة ـ لم يكن أمامه غير ذلك، ولو فرضنا أنه لم يرض ـ نفترض ـ فما الذى يمكن أن يفعله، أو تفعله أنت؟!

والذين يعانون أمراضا، فى العيون، أخذوا مقالنه على حرفيته، وارتاحوا إليها، على اعتبار أنهم ليسوا الوحيدين، الذين يشكون علة فى البصر، وأن هناك من جرده الله من هذه النعمة نهائيا.

أما الأعمى، فنعرفه، ونسأل الله أن يعوضه خيراً، والا يقضى على غيره، من سائر خلقه، بما قضى على بعض عباده فى دنياهم.

وأما الأعشى، فهو الذى يرى بين بين، لا هو أعمى ولا هو سليم البصر..

وذو البصر، هو صاحب العينين السليمتين، وهذا هو حال النسبة الغالبة من أهل الارض.

وتبقى الندرة، دائمًا، لصاحب الحالة الأولى: الأعمى، ثم الحالة الأخيرة: زرقاء اليمامة.

وأندر من الأولى، هذه الأخيرة.. فنحن لا نعرف فى تاريخنا، غير زرقاء يمامة واحدة فقط، بل حتى هذه الوحيدة يقال انها: اسطورة، لم يكن لها وجود فى يوم من الأيام، ولكن تطلع الناس إلى الكمال ـ فيما يبدو ـ قد دفعهم لنسج تلك الاسطورة العجيبة، التى تروى أنها ـ أى الزرقاء ـ كانت امرأة، عاشت فى الجزيرة العربية، زمانا، وكانت ترى لمسيرة ثلاثة أيام، على الأقدام.

يعنى، بالورقة والقلم، ترى قدر المسافة من الاسكندرية للقاهرة، ثلاث مرات.. وبعبارة اخرى، تستطيع أن تبصر، بعينيها المجردتين، وبغير نظارة ولا يحزنون، لمسافة ٧٠٠ كيلو متر تقريبا.

تلك امرأة، كانت عيناها أقرب إلى «التلسكوب» والبعض قطع بأنها كانت موجودة، وأن الذين عاشوا أيامها رووا عنها، بينما نفى البعض الاخر أن يكون الدم قد جرى فى جسد امرأة، بهذه الصفة، أبداً. ولكنها، على كل حال امرأة ـ أيا كانت حقيقتها ـ تنفعنا فى أوقات كثيرة، ونستدعيها كثيرا، على سبيل الذكرى والتأسى!.

تمامًا، كما فعل الحكيم، الذى نظر إلى حاله، وتأمله، فاكتشف انه يصعب على الكافر، ولكنه عاد، سريعا، إلى رشده، وتذكر أن قبله كثيرين، وزع الله بينهم الارزاق، شأن درجات الإبصار، وتفاوتها، من الأعمى إلى الزرقاء!

قال الرجل: سبحان من أعطى، فلا عتاب ولا ملامة.. أعمى وأعشى ثم ذو بصر، وزرقاء اليمامة!

وبعض البسطاء، يرمقون الأغنياء، أو الذين أدركهم الغنى مؤخرا.. يرمقونهم فى عجب، ويرددون المعنى القديم، فى عبارة مختلفة، فيقولون: سبحان العاطى!

إنهم يقصدون نفس المعنى الذى قصده الحكيم العربى، حين يقفز الرجل - مثلا - من قاع الفقر «ويقابله العمى بالقياس» إلى الثراء الفاحش، الذى هو، بالقياس أيضًا، حال الزرقاء.

والذى يقول: سبحان العاطى بدون مناسبة.. يخطىء فى نصف الجملة الأخيرة، فليس هناك شىء بغير مناسبة، وإن بدا لك أنه كذلك.

إنها درجات أربع، فى الحياة بوجه عام، وليس مجرد البصر، يتنقل بينها الإنسان، وبقاؤه فى إحداها، أو انتقاله إلى أخرى، امر فى يده.. بالعمل الذى لا يعرف العبث.

يعزى نفسه فى نفسه!

والله، أنت لا تملك الا أن تقف مشدودا، مندهشا، مأخوذا، أمام ما قاله صاحبنا، من أكثر من عشرة قرون، أى منذ ما يزيد على ألف عام.

وصاحبنا الذى نقصده، نعرفه كلنا، وسيرته شغلت الناس وملأت الدنيا، ولا يزال كل شاعر يطمح ويطمع أن يجد له بجواره مكاناً.. أو موطىء قدم!

كل شاعر، مهما بلغت قامته الشعرية، يود لو أسعده الحظ، وفاضت عليه موهبته، أو «ربة الشعر» كما كانوا يقولون قديما.. بما يضمن له ان يبدو فى الصورة بجوار صاحبنا الكبير.. أنه أبوالطيب المتنبى.

تكلمنا عنه، من قبل، كثيراً، ولا يزال فى شخصيته وفى شعره الكثير، مما يجعلك تنشغل به، ثم لا تندم على أنك قد أضعت وقتك، أو بددت جهدك.

والرجل، كما يعرف أغلبنا، لم يقم بمصر طويلا، وإنما هو قد نزل ضيفا على حاكمها، فى ذلك الوقت، القرن الرابع الهجرى، كافور، وظل يسانده تارة، ويحالفه - بالاشعار طبعًا تارة اخرى، فلما أيقن أنه لا أمل فى كافور، لعن أباه وترك مصر إلى غير رجعة، واتجه إلى بغداد، حيث مات فى إحدى طرق المدينة، صريعا من فوق فرسه الشهير.

تلك كلها، أطراف من حياة ذلك الرجل، وهى حياه تشكل ملحمة فى حد ذاتها، اشبه بملاحم الاساطير القديمة.

وأنت حين تقرأ أشعار أبى الطيب، الآن، تكاد تنكر - الآن مرة أخرى - أنه عربى أو يمت للعرب بادنى صلة.

طبعًا، العيب فينا نحن، وليس فيه هو، فلقد وقف الرجل يوما، يهتف بواحد من أبياته، لا تملك، اليوم، الا أن تردده فى أسى وأسف، لأن الزمان قد دار، كما قالوا، دورة معاكسة وصار البيت وكأنه قيل فى قوم اخرين، وفى بلاد اخرى غير العرب، من فرط الهم الذى ادركهم، والغم الذى غشيهم.

قال:

وأنى لمن قوم كأن فى نفوسهم

أنفا أن تسكن اللحم والعظما

هذا ما قاله الرجل، يصف به العرب بوجه عام، وأهله وناسه بوجه خاص.

والحق، انك حين تردد كلمات هذا البيت، بينك وبين نفسك فسوف تزداد شعورا، بأنك تعزى نفسك فى نفسك، ثم فى قومك الذين قصدهم أبوالطيب، ولم يعد لهم أثر.

لم يعد لهم أثر، بالمعنى المجازى بطبيعة الحال، وأما بالمعنى المادى، فالعدد - كما يقولون - فى الليمون، وقوم أبى الطيب، الذين كانت نفوسهم تأنف أن تسكن اللحم والعظم، من فرط الكبرياء والاعتداد بالنفس - وليس التكبر أو عدم التواضع - هؤلاء الناس لا تفهم ولا تعرف ما الذى جرى لهم،

وتكاد تشك فى أن أبا الطيب كان يتحدث عن قوم اخرين، غير العرب، ويقصد بلادا فى عقله هو، وليست موجودة على أرض الواقع.

إذ من غير الممكن، ولا المتصور، ان ينحدر الحال، بهذا الشكل، الذى لا ترى معه أدنى صلة، بين ما كان، وما أصبحنا فيه.

لقد تاه المعنى، أو الواقعة، التى قصدتها هذه السطور، منذ بدايتها، فى غمرة تداعى المعانى، التى تتدافع مع ورود إسم إبى الطيب.

بطل العام.. فى الكلام!

السوق التى نعرفها، اليوم على الاقل، تقام فى يوم محدد فى أيام الأسبوع، ثم تنفض، بعد أن يبيع الناس ويشتروا، فيربح من يربح ويخسر أصحاب الفال السيىء، أو كما يقول المتأدبون، أصحاب الفأل غير الحسن.

وعلى فكرة، فالعرب هم أهل الأدب، وهم الذين علموا الناس، كيف يستطيع الواحد منهم ، أن يقول الكفر ـ والعياذ بالله ـ ولكن فى لغة مستورة، واسلوب مؤدب، وعبارة غير جارحة.

وعمر بن الخطاب ـ مثلا ـ كان إذا أراد أن يصف رجلا كافرا، فى معرض أى حديث عابر، استحى أن ينطق هذه الكلمة غير اللائقة، وقال إن فلانا رجل غير مؤمن.

طبعًا، وهو نفس المعنى، ولكن ليس فيه صد للنفس، ولا يجزع منه المستمع على كل حال.

هذه ملاحظة طريفة، قد تكون بعيدة عن موضوع الحديث.. لكنها تتصل به على نحو أو آخر.

فالسوق التى نعرفها جميعًا، فى أى بلد عربى، أو حتى غير عربى، هى مكان يتسع للبائع والشارى، كى يعرض كل واحد سلعته، ويغرى الأخرين بشرائها، ويدارى عيوبها، ويفاصل، ويحاول أن يجد لها مشتريا باعلى سعر ممكن.

وليس هناك رجل، مثلا، يدخل السوق وليس فى يده شىء يبيعه، ثم يغادره وليس فى يده شىء اشتراه، اللهم الا فى القليل النادر.

والقاعدة، انك تنزل أرض السوق، وتتطلع الى السلع المعروضة، وتوائم بين أسعارها، وبين قدراتك، ثم تختار.

وليس لأحد أن يغضب، إذا ما اشترى سلعة، ثم اكتشفت لما صار الى بيته، أن نصفها عيوب، والنصف الآخر لا يستاهل ربع الثمن الذى دفع فيها.

إنها «سوق».. وأحد معانى هذه الكلمة، عند عامة الناس بوجه خاص، هو المكان الذى يمتلىء بالصخب والضوضاء، ويعجز الواحد فيه، الا بالكاد، عن التمييز بين الحسن والسيىء، فكل سلعة معروضة، لابد أن فوقها ألف قناع، أحكم صاحبها ووضع لها قناعا فوق قناع.

ولكن كل أنواع الاسواق، التى عرفناها والتى سوف نعرفها، فى ناحية، وتلك السوق العربية القديمة، فى ناحية أخرى، ومختلف تمامًا.

فلا سلعة ـ بالشكل الشائع ـ ولم تكن هناك أقفاص ولا رفوف تتراص فوقها السلع، ولا أوراق لامعة تدارى فساد السلعة، ولا أحد يحرك يديه وينفض عن بضاعته الغبار، ويغازل الساعين ويحاول استمالتهم.. كل ذلك لم يكن قائما فيها.

انها سوف تخضع لذات القواعد والأصول، وتمضى حسب ما تعارف عليه البائعون والشارون، من منافسة وصراع، ولكن اعود وأقول أن بضاعتها من نوع أو وصنف نادر جدا: الكلام!

نعم.. الكلام هو كل رأس المال الدائر، فى سوقنا العربية القديمة.. سوق عكاظ.

وكما يرهق تاجر الفواكه، مثلا، نفسه فى سبيل إظهار بضاعته بما ليس فيها، كذلك كان حال رواد عكاظ، قبل ان يكون هناك اسلام أو مسلمون. أى فى جاهلية العرب الأولى.

والشاطر، يومها، هو الذى يكذب ويكذب ويكذب، لكنه كذب أبيض، كما نقول أحيانًا، حتى أنه ليبدو صدقا من فرط الكذب.

وبطل العام كله ـ إذ كانت تقام كل سنة ـ هو صاحب أكثر الأشعار إمعانا فى الكذب.

والعرب تقول: أعذب الشعر أكذبه.. أى أن اكثر الاشعار كذبا، اعلاها عذوبة وجمالا وجذبا للاسماع.

شهدوا لها!

ذهب.. ياقوت.. مرجان.. أحمدك يارب: عبارة يهتف بها كل واحد يسعده الحظ، وتنفتح له طاقة القدر، وباب السماء، فيتحقق له ما لم يكن يخطر على باله، فلا يملك، عندئذ، إلا أن يصيح كما صاح «على بابا» الذى وقع على كنز كبير كانت عصابة الأربعين حرامى، قد اختزنته فى مغارة، وأخفته عن العيون، ووضعت على باب المغارة، شيئًا يشبه العين السحرية، التى توضع على الأبواب الأن، مع الفارق طبعا!

والقصة طويلة، وتفاصيلها كثيرة، وتكاد تكون مملة، وموجزها أنه حين حمل «على بابا»، وهو رجل حطاب فقير، اجولة الذهب من مغارة تلك العصابة، لم يهدأ له بال بعد ذلك. ولا عرف النوم طريقا الى جفنيه، وقد كان قبل أن يداهم المغارة، ويتسلل من أحد أبوابها، يخرج من ساعات النهار الأولى، ويجمع بعض الأحطاب، ويبيعها ويأكل من عائدها، ولا يطمع أو يطمح فى شىء أكثر من ذلك!

ولعل البطلة الحقيقية، فى تلك القصة الشعبية البسيطة، هى مرجانة، الجارية الساذجة، التى انقذت مخدومها بحيل شتى، وراحت تتخفى، وتتصنع العبط أحيانًا، وتأتى افعالا لا تتفق مع طبيعتها أحيانا أخرى، وتكشف عن الذكاء الفطرى للمرأة، حين تخدع وتخادع وتفعل ما يعجز عنه عشرات الرجال!

كان لعلى بابا أخ شقيق، وكان من الاثرياء الذين ليسوا فى حاجة إلى زيادة من مال أو جاه، ولكنه كان يطمع فى المزيد، ويطمح لأن يكون عند أكثر، وأن يستزيد ما استطاع إلى ذلك سبيلا! وحين تناهى إلى سمعه، أن أخاه قد رزقه الله بشىء من مال، اراد ان يكون له مثله وأكثر، وتفنن فى الاستدلال على مكان الكنز، ولما استقر هناك، تاهت عن باله كلمة السر، التى لم يكن ينفتح الباب بغيرها، ورغم أنه لم يسرق شيئًا، ولم يخرج بجراء واحد من الذهب إلا أن سوء حظه، لسوء نيته، قد حالفه على طول الخط، ونسى كلمة السر، وهى عبارة واحدة ليس اكثر، وداهمه الأربعون حرامى، فقطعوا أوصاله، على أنه هو الذى نهبهم منذ البداية، مع أنه لم يكن له فى الامر ناقة ولا جمل.

ولا تعرف كيف وصل إلى علم «مرجانة» أن شقيق زوجها قد تقطعت أطرافه، وأنه فى حاجة لمن يكرمه بالدفن، وأنه فى حاجة لمن يكرمه بالدفن، وأنه لا أحد غيرها يستطيع أن يفعل ذلك، ولم يكن أمامها إلا أن تستدعى خياطا يصل ما بين الأطراف التى تنزف دما، ثم تلفه فى حرير، وتواريه قبره.

ونقرأ أنهم قد استدلوا بالخياط «أو الحائك كما نسميه فى اللغة العربية الفصحى» وأنهم أى الأربعون لصا أو حرامى قد اقتادوه ليدلهم على بيتها، الذى هو فى ذات الوقت، بيت «على بابا» ولكن الليل يهبط عليهم، وهم فى الطريق، فيشير لهم من بعيد إلى البيت، ويضعون عليه شارة يعودون على هداها فى اليوم التالى!!

وفى اليوم التالى، كانت كل البيوت عليها شارات، فقد فعلتها «مرجانة» واصطنعت من فنون التموية ما عجزوا معها على الاهتداء إلى ما ارادوا فتفرق دم «على بابا» بين القبائل، وكانوا - فى بقية الحكاية - كلما اهتدوا إلى حيلة جديدة افسدتها عليهم مرجانة، حتى يتيقنوا، وشهدوا بأن المرأة إذا كان لها عقل تفكر به، مع كيدها الفطرى، فمن المستحيل أن يستعصى عليها شىء!

غضب وقال: إنه كلام!!

سهل جداً، أن تتكلم وتقول، وأن تحل مشاكل الدنيا كلها، على الورق وتبنى لكل واحد بيتا امامه شجرة... إلى آخره.

ولكن تنفيذ ربع ما نقوله فى ساعة يحتاج لسنوات طويلة من العمل، وقبل العمل، الصادق مع النفس، بحيث لا نقول شيئا، ثم نفعل شيئا يختلف عنه أو يناقضه.

وهذه مشكلة كبيرة، جعلت الكلام، مهما كان وزنه، رخيصا، وافتقد الناس الصدق، ولم يعد أحد يصدق شيئا مما يقال.. الا أن يرى فعلا.. أو أن يرى قدوة تفعل ما تقول، أو تفعل قبل ان تقول.

وعندنا اكثر من مثل شعبى، معناه أن الكلام لو كان بفلوس، ما كان أحد قد فتح فمه بكلمة واحدة، وأن الاسماء لو كانت هى الأخرى لها ثمن، لكان الاباء قد اطلقوا على ابنائهم أردأ الأسماء وأدناها!

وأحد الحكماء العرب، كان يقول ويصدقه الناس، ويحتكمون اليه، ويعتبرونه قدوة، إذا قال فعل، وإذا قال لم يخف.

وكان له عند الناس رصيد كبير سقط بموقف بسيط ربما لم يقصده الحكيم أو لم يتصور أنه يمكن أن يشطب كل تاريخه هكذا.

الحكيم إياه، فيما بدا على مر الايام، كان يكره البخل، ولا يقبل البخيل ويبدو للناس كريما، ويطلب منهم أن يكونوا كرماء.. الى اخره..

ومادمنا نقول: يبدو... فمعنى هذه الكلمة أن هناك شيئا كان يخفيه خلف ما يبديه.

وكل ذلك ظهر، عندما وضع كتابا اهداه للامير، وفيه كان يمتدح البخلاء ويلتمس لهم الاعذار، ويرى أن أغلبهم على حق، حين يضنون بأموالهم على الناس..

كان يذكر البخيل، ومواقفه ثم يثنى عليه، ويحاول أن يجد له مخرجاً، وأن يبرئه مما قد يسىء اليه..

وأهدى الكتاب للأمير، ربما على سبيل التسلية والترفيه. ولا اكثر.

ولكن الأمير كانت له وجهة نظر، وهى أن صاحب الكتاب، أحق الناس بالعمل بما فيه، وصاحب الكلام، أو الذى صناعته الكلام، ليس من اللائق أن يقول ما لا يفعل.. لابد أن يبدأ هو لنقتدى به.

لذلك، قرر الأمير، أن يمنع عطاياه التى كان يجريها على الحكيم وأن يحجبها عاما أو عامين!!.. قرر أن يصدق الحكيم، وأن يأخذ بكلامه.. ربما فى هذه المرة فقط!

والذى حدث أن الحكيم غضب جداً، وقال أن ما نكتبه شىء - يا أيها الأمير - وما نفعله شىء اخر!

وقرر الأمير ان يعلن على الملأ، حقيقة الحكيم، وكيف أنه يقول بالنهار ما يمسحه بالليل، والعكس!

وقرر أن يعلن ـ أى الامير ـ انه ليس فى إمكانك، أن تخدع الناس طول الوقت. من الممكن أن يحدث ذلك، بعض الوقت، ولكن الصدق، دائمًا هو الذى يبقى.

ولكننا، دون أن ندرى، لانزال نأخذ بمبدأ الحكيم إياه، الذى كان يكره البخيل أو حتى يمتدحه على الورق فإذا جاء أحد يمتحنه فى صدق ما يكتب، غضب وقال أنه: كلام!!

فهل نقول: عفا الله عما سلف، من امر الحكيم وغيره من حكماء الكلام، والكلام فقط، ونبدأ نحن.. نبدأ بأن نقول ما نفعل.. أو نسكت..

يهز رأسه.. ثم يبتسم!

لا داعى، الآن، للخوض فى فكر الرجل، أو الابحار فى عقله، فلا الوقت ولا الظروف ولا المجال مناسب.

والرجل الذى أقصده، حتى لا ينسى كثرة الكلام بعضه بعضًا، فننساه، هو الإمام إن تيمية.

أن له فكرا مستنيراً، معتدلا، هادئا.. ولكن الحظ، أحيانا، لا يحالف كثيرين، فتبدو صورتهم فى اذهان الاجيال القادمة من بعدهم، بعيدة تمامًا، إن لم تكن مناقضة لحقيقتها.. حظ!

هذه كلمات لابد منها، بداية.. لننفض بها بعض الغبار الذى علق بصورة الرجل وهو إمام كبير.

إمام كبير، شاء حظه أن يسوق إليه شبابا خائبا، يقرأون بعض ماكتب، ويسقطون البعض الآخر، أى يمشون على سطر، ويتركون سطورا، ثم يسيئون - لقصور فى عقولهم - إلى الدين والرجل معًا، فإذا جاء واحد يلومهم، كان الجواب جاهزا بأنهم لم يذهبوا بعيداً، وإنما قرأوا عن ابن تيمية ماكتبه وما تركه.. ثم آمنوا به!

المهم، أو ما يهمنا اليوم، هو أن نصحبه فى إحدى جولاته، بمعنى أدق فى احدى عباراته التى قالها ومضى، ضمن غيرها من العبارات.. ربما بغير اهتمام كبير رغم أن لها معنى يهد الجبال كما نقول.

وسوف نغض الطرف، مؤقتا، عن سوء الفهم الذى ظل يلاحق الرجل ويطادره.. ولايزال.

أن عقلا كبيرا، فى حجمه، لابد أن يكون له اعداء بغير حصر، وأن يسعى بعضهم، وهم من ذوى السلطان، إلى التخلص منه.

والإنسان المؤمن، بوجه عام لا يعبأ كثيرا، ولا يلتفت إلى ما يقال، أو ما يدور ضده فى الخفاء، لسبب واحد، وأساسى، هو ايمانه.

أنه مؤمن بأن ما كان، سوف يكون، وما هو مكتوب له، سوف يراه بغير جدل قليل أو كثير.. لامفر ولا حل.

وهذا ليس «دروشة».. وليس رفعا للراية البيضاء، كما إنه ليس استسلاماً قبل بدء الجولة، وانما هو، فى عرف ابن تيمية على الأقل، له اسم واحد: الايمان.

وهو كان يعرف أنه فى مرمى النيران، كما يقولون، وأنه هدف لقذائف من كل اتجاه، وأنه ليس له أن يأمن إلى أحد من البشر، حتى ولو كان هذا الاحد من بين اصدقائه!

وكان أصدقاؤه المقربون، يضربون كفا بأخرى دهشة واستنكارا لعدم اهمامه بما يقال له، عما يدبر ضده!! وهو تدبير كان ابن تيمية، قبل غيره، يعرف انه حقيقة وأنه صدق.

ولكنه، فى كل الاحوال، كان يهز رأسه فى ثقة ثم يبتسم.

ولم يكن خلصاؤه، يفهمون عنه، معنى تلك الابتسامة، التى يرى فيها هو، ردا كافياً.

وكان هو يسأل لائميه، عما يمكن أن يفعله به الاعداء، وعن أقصى مدى يمكن أن يصلوا اليه، فى الكيد به وله.

يرد واحد فى خوف: يسجنونك.. وهذا أضعف الايمان عندهم.

ويسارع آخر فى لهفة: ينفونك خارج البلاد.. ليس أقل من ذلك.

ويستدرك ثالث: وهل نستبعد أن تمتد يد تتخلص منك نهائياً.. إلى آخره.

والجواب، فى الحالات الثلاث، وغيرها، كما فى سوابقها الابتسامة!!

ومعها، هذه المرة، تعليق أو توضيح بسيط.

لوسجنونى، فهذه فرصة لكى اختلى إلى نفسى، وأفكر بهدوء.

الشاهد الثامن!

عاشق فارس، أشقاه حبه طويلا، وكانت فتاته تجد راحة كبرى فى عذابه وتعذيبه، ولم تكن تبالى كثيرا، برسائله التى لم تكن تنقطع، ولا كان فى نيتها أن تستجيب لشىء من توسلاته، ولا تعمل خاطرا لرسله الذين كانوا يعودون إليه، وهم مكسورو الخاطر، ناصحين إياه بأن يرضى بما كتب الله له، وأن يوطن نفسه على ذلك!

ولقد شاء حظ عنترة العبسى، أحد فرسان وشعراء العرب الكبار، فى الجاهلية، أن يرث لونه الأسود عن أمه، وأن يقف لونه هذا، حائلا بينه وبين اشياء كثيرة، أولها واهمها، حقه فى أن تكون له زوجة، وأن يختار امرأة ارتاح لها قلبه كبقية الرجال، وأن يكون له اولاد بعد ذلك، يرثون شيئا من فروسيته وسواده، وبعضا من جمال وبياض امهم، فيكون لونهم بين بين، فلا يعايرهم أحد بما ليس لهم فيه يد!! كما هو الحال مع أبيهم.

كان الفارس يود ذلك، ولكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه، وليس هذا فقط، وإنما الأنكى من ذلك، أنه حين ولد، اخذوه الى حيث ينشأ: واحداً من عبيد أبيه، الذى كان هو الآخر يأنف أن يكون له ولد أسود، ويتأفف من أن تكون «زبيبة» أم عنترة، زوجة له، رغم ان الشاب كان ابنه، وكان هو يعرف ذلك جيداً، بينه وبين نفسه، ولا ينكر ذلك إذا ما واجهته زبيبة وحيداً!

ولم يكن أمام عنترة حل آخر على الاطلاق، وكان عليه أن يكون واقعيه لأبعد مدى، وألا يهرب مما هو كالقضاء والقدر، وأن يسلك حياته على هذ الأساس!

وقد كان بإمكانه، حين أحب عبلة، وأحبته هى الأخرى، أن يتزوجا على طريقة ايامنا هذه، وأن يضعا أبويهما أمام الأمر الواقع، فلا تكون هناك فرصة لتراجع أو رفض!

ولكنك حين تطالع قصة حبهما، تكتشف قدرا من الفروسية لم يتوفر لأحد غيره، وكما كان فارسا فى ساحة الحرب، كان كذلك فى عالم الحب أيضًا، فقد راح ينشد معلقته الشعرية، عندما يئس تمامًا، ويعدد فيها مناقبه وفضائله، فى غير تواضع مصطنع ومرفوض معًا.

والمتنبى، عندما اراد أن يدلل على قيمته، وأن يشير لمن يجهلونه إلى سبعة أشياء أو سبعة شهود، يعرفهم، ويعرفونه هم أيضا جيدا، بدأ بالخيل، وجعل الليل ثانيها، والصحراء ثالثها، ثم السيف والرمح، فالقرطاس أى الورق، وأخيرا القلم.

فهو. كما نقول. سبع صنايع، ولكن البخت أو الحظ لم يكن ضائعا باى حال من الأحوال، كما نعرف فى سيرة ذلك الرجل العظيم.. أبى الطيب المتنبى!

والأمر نفسه، فعله عنترة، وكتب إلى عبلة أن تسأل شاهدا واحدا فقط، أو أن تستنطقه، ربما باح لها بشىء مما يجده مع فارسها سيىء الحظ!

والشاهد الوحيد، عند عنترة، كان هو الفرس الذى لم يكن يفارقه، وكان يصفه بأنه «سابح نهد» أى أنه إذا ما انطلق فى معركة، فكانه يسبح بقدميه الأماميتين فى بحر، وكأنه يشق النهر كالطود، وهو «نهد» اى صاحب صدر عظيم يهدم جبلاً إذا ما اصطدم به!!

ولن تقع على رجل يشرب كعنترة... فكل الرجال، تقريبا، إذا شربوا شطحت عقولهم، وقالوا اشياء لم تكن لتصدر عنهم لولا الشراب، إلا عنترة، فهو اذا سكر، فأنه مُستهلك ماله!!

ارأيت رجلا يشرب فيبلغ ذروة الكرم، ويعشق فيأبى إلا أن يكون فارسا، وينشأ عبدا فى مزرعة أبيه، فلا يكون له إلا كل توقير، ويطلب إلى فتاته أن تسأل عنه الخيل إن عزت عليها شهادة بنى الإنسان؟!

أو يشرب .. فيموت!

يقع الطفل من سابع دور، فينهض كما سقط، دون خدش فى جسده. ويتعثر الرجل، وهو راكب دراجة بخارية، مثلا، فلا يقوم من مكانه إلا إلى حيث سوف ينتهى الجميع.

والأقرب للعقل والمنطق، أو الأولى فى مثل هذه الحالات، أن يموت الطفل قبل أن يصل إلى الأرض.. يكفيه فزع الدقيقة، والثوانى، التى يقطعها من شرفة منزله إلى حيث يرتطم.

ولكن العكس، كثيرا، يحدث، ولايزال. ولا تجد تفسيرا إلا: أعطنى عمر، ثم ألقنى من فوق قمة جبل، أو فى عمق البحر، وسوف أخرج إلى الشاطىء الآخر، بغير بلل - وليس الغرق - وسوف أقوم من سفح الجبل دون جرح واحد.

وهو تفسير صحيح، وصادق لأبعد مدى، بل وتزيدك المفارقات التى تتكشف عنها مثل هذه الحوادث، يقينا به فوق يقين.

إنك، بقليل من التأمل، لواحدة أو أكثر من تلك الوقائع، تكتشف أن يدا خفية تمتد لتنقذ الرجل أو الطفل من موت محقق.

وليست هذه اليد الخفية، إلا العمر المتبقى، ثم أنها إرادة الله.

ورجل مثل خالد بن الوليد، بحساب الأرقام. أرقام السهام التى اخترقت جسده، أو التى استقرت فيه. كان لابد أن يموت قبل الموعد الذى مات فيه بسنوات طويلة.

إن موضعا فى جسده، لم تخطئه رمية سهم، وجسمه كان عبارة عن «غربال» من كثرة ما أصابه فى حروبه وغزواته.. وفى كل مرة، كان ينحو،

ويضرب عدوه كفاً بكف، وهو لا يدرى ماذا يقول.. هل يقول ـ كما نقول نحن ـ أن عمر الشقى بقى.. يجوز.

ولكن خالدا نفسه، حين جاءه الموت، وهو فى فراشه ـ وليس فى ساحة حرب ـ كان أكثر دهشة من الذين ذهلوا لقدرته على الصمود، ونجاته كل مرة ـ كما نقول ـ باعجوبة.

إن قائدا من قادة الروم، إحدى الامبراطوريات العظمى فى ذلك الزمان، كان يعتقد أن هناك جنودا من السماء تحرس ابن الوليد، وكان يظن أن خالدا يعرفهم. يعرف جنود السماء، ويراهم ويحدثهم.. ويطلب منه القائد، أن يصارحه بالحقيقة، ويعده بأنها سوف تكون سرا فى بئر!

وأما أن خالداً كان يعرفهم، فقد كان يرد على قائد الروم، بعبارة لا تنقضى له دهشة أمامها.

نحن يا سيدى، هكذا كان رد خالد، نحب الموت، كما تحبون أنتم الحياة!

والقائد، كان يجد فيها درجة من اليقين، لا تتوفر لأى واحد. وإنما لقلائل فقط، يحرصون على الموت، فتوهب لهم الحياة!

إنها عبارة، تدلك على أن الحياة، ليست إلا مغامرة، ولكنها محسوبة، ومن لم يمت بالسيف، مات بغيره، فالأسباب تتعدد، ولكن الموت واحد.

والذى يخشى البحر، ويفزع لمنظره، مخافة الغرق، يمكن أن تطلع روحه، حين «يشرق» وهو يشرب فيموت!

والمفارقات كثيرة، تضحك أنت لها، وتبكى على ضحاياها.

ومع ذلك، فالحياة بغير مغامرات، ليست حياة، لأنها تكون أقرب لحالات الموات.. لا طعم لها، ولا لون ولا رائحة.!

ولكنها لا تخلو من المعنى!

أحيانا، تقرأ عن اشياء، يختلط فيها الخيال بالحقيقية، وتقترب من العنقاء والغول والخل الوفى، ومع ذلك، تكتشف أن لها بعدا أخر، يمكن أن يكون مفيدا لأخر مدى!

ولأن مجالس الخلفاء العرب، أيام الدولتين الأموية والعباسية، كانت حافلة بالمناظرات العقلية، والمناقشات الجادة الساخنة، بين الشعراء والأدباء وذوى العقول الكبيرة من ناحية، والخليفة وحاشيته من ناحية أخرى، فإن واقعة مما كان يجرى فيها، أو وقائع كثيرة. يمكن أن يضاف إليها، بما يخرج بها عما حدث فى حقيقة الأمر فعلا.. ولكن حتى هذا الخروج يضل نافعا ومفيدا.

كيف؟

أضرب لك مثلا.. يقولون إن عبدالملك بن مروان كان يحب مجالسة الأدباء، ويقربهم إليه، ويمنح النابهين منهم المال والمنصب، وكان ينشط ذاكرته وعقله فى حضورهم، ويطرح الفكرة، أو يُلقى السؤال، ليكون مثار حديث لا ينقطع حتى الساعات الأخيرة من الليل.

وأقرب إلى ذلك، سؤاله يوما عن أشد الناس، جسما وعزيمة فى ذات الوقت، وهو سؤال القاه، وترك الحاضرين يخمن كل واحد منهم، ويحاول أن يجعل الحل فى قومه هو ، أو فى قبيلته هو، لأن حكما يخرج من مجلس

عبدالملك بن مروان، مُتفقا عليه بين الطرفين، عقول الأمة والخليفة معًا، فإنه حكم يظل فخرا لمن صدر لصالحه، ويبقى فخرا بين الناس زمنا طويلا.

ولقد تسابق الجميع، للجواب على السؤال، فواحد يقول إن هذا الرجل، الذى هو أشد الرجال عزيمة وبأسا، لن يخرج عن قريش، فهى صاحبة فضائل كثيرة، ويكفى أن منها الرسول الكريم، وعندما يومىء عبدالملك بأنه ليس صحيحا، وأن وجود الرسول الكريم فى قريش لا ينفى ان يكون فى القبائل الأخرى رجال، فتتحول أنظار الحاضرين وعقولهم إلى اتجاه آخر.

ويقول واحد أخر بأنها «مُضر» مثلا، وهم قوم اشتهروا بالقوة والبأس، وكان منهم رجال، بمعنى الكلمة.. كثيرون.

ويكون الجواب مفاجأة، بأن المقصود ليس من بين أبناء مُضر.. وهكذا، من قوم الآخرين، ومن قبيلة، أو مقاطعة، أو محافظة، بتعبير هذه الأيام، لأخرى، والحاضرون يفتشون فى الذاكرة، ويستعرضون فضائل ومناقب كل ركن من أركان العرب.

ولابد أن مثل هذه الرياضة العقلية، كانت فرصة كبيرة، لاستعراض شريط الحياة بين العرب جميعا، حتى يقوم الواحد من الحاضرين، وفى رأسه فكرة موجزة ومكتملة، عن كل عائلة، وأين يمتد نسبها، وكم تبلغ عراقتها، وأين هم الرجال!! ويقال إن الحاضرين لما غُلب حمارهم - كما يقال - بحثا عمن يقصده عبد الملك، قال هو فى ثقة، بأنه فلان، وليس غيره.. ثم سكت، فازداد الجميع شوقا، لمعرفة صاحبنا، الذى اشار إليه الخليفة إشارة خفية ثم صمت تمامًا.

ولما ألحوا عليه، قال إنه يقصد بالطبع، حكيم بن جبلة، وهو أحد رجال بنى ربيعة، الذين ربما انتسب اليهم عمر بن أبى ربيعة، أمير الغزل والحب فى الشعر العربى القديم. ويروون عن حكيم هذا، قصة خيالية، أو هى أقرب الى ذلك، وإلا فهل تصدق أن رجلا دخل فى معركة فقطعت ساقه، فاحتمل وتساند، وامسك بساقه المقطوعة ثم راح يطوح بها فى الهواء، يميناً وشمالاً، وكأنها سيف، حتى أسقط بها عدوه من فوق فرسه، ثم جثم فوق أنفاسه، حتى قضى عليه، وجلس يستريح!!

ليس هذا فقط، وإنما مر به بعض الرجال، وهو على حالته تلك، فسألوه عن قاطع ساقه، فقال: وسادى هذا.. أى أنه اتخذ مقاتله وسادة يتكىء عليها، ثم راح يتغنى، وساقه تنزف بين يديه: يا ساقى لا تراعى، إن معى ذراعى!!

مسألة فيها كثير من خيال طبعا، ولكنها لا تخلو ـ منذ البداية ـ من أكثر من معنى، وهذا هو المطلوب!

عين المحب!

عين المحب، صحيح، عن كل عيب كليلة، فما بالك إذا كانت هذه العين، هى عين العباس بن الاحنف، أمير الغزليين، والمحبين، والعاشقين جميعًا، منذ نهاية القرن الثانى الهجرى.. وحتى اليوم.

وقد كانت للعباس مع حبيبته، طريق طويلة، وكان بينهما صبر، ولا صبر أيوب عليه السلام.

ويبدو أن العباس، قد قرأ عن الرسول، عليه الصلاة والسلام، ثم أراد أن ينتفع بما قرأ.. والحكاية، ان الرسول الكريم، كان إذا أراد أن يفعل شيئًا، خاصة فى ميدان المعركة، ورى ـ بتشديد الراء ـ بغيره، أى راح يفعل شيئًا آخر، يصرف عن الموضوع الاساسى، النظر تمامًا، فإذا جاءت الضربة، كانت موفقة، وناجحة.

اما العباس، فقد كان يموت ـ كما نقول ـ حبا فى فتاة من أجمل النساء، أو هى اجملهن كما وصفها بعد ذلك، وكانت اسمها «علية» وهى بنت المهدى، ولكنه حين تغزل فى أوصافها، أخفى اسمها تماما، وجعل لها اسما آخر، هو: فوز.. وهو اسم ذو معنى كما ترى، فضلا عن أن الاسم الحقيقى له معنى جميل أيضًا هو الآخر.

ولك أن تتصور حال امرأة تسمع مديحها باذنيها، وتكون بين رفيقاتها الصبايا ثم تستحى أن تعترف بانها هى المقصودة، أو تبوح بشىء يفضح امرها ـ فيما كانت تتصور هى ـ وهو أمر كان معروفا وقتها، فالقبائل كانت تدارى أى وصال أو عشق، بين بناتها وبين الفتيان.

والعباس، فيما يظهر، كان من اصحاب المبادىء، الذين لا ينحرفون عما اختاروا ابدا، مهما كان حجم الاغراءات المادية وغيرها.

لماذا؟

لانه عاش فى عصر، كان امتداح السلاطين والحكام فيه، مصدرا من مصادر الثراء السريع، للشعراء ذوى المواهب الكبيرة، ولكنه لم ينزلق إلى هذا المنحدر ابدا، وظل حريصا على أن يصف أجمل خلق الله، من النساء، ثم يكتفى بذلك، وهو لا يرجو جزاء ولا شكورا.

وحين جاء الجاحظ فيما بعد، وهو عقل عربى يندر أن تجد له مثيلا، شهد للعباس بانه قد فاق كل الغزليين، وان نأيه عن القصور وانسلاطين، قد عاد عليه بخير كثير.

وإذا كنا فى الامثال الشعبية، نقول أن صاحب البالين كذاب، فإن الجاحظ، وهو ينصف، ويصنف العباس، اشار إلى شىء من ذلك، حين اعترف بانه ادرك سر تلك البراعة التى ابداها العباس، فى الغزل بوجه خاص، حتى لم ينهض امامه شاعر غزلى آخر، الا وانكسر.

وكان السر بطبيعة الحال، هو تركيز العباس فى الغزل، دون غيره من فنون الشعر الاخرى، كالهجاء، والرثاء، والمديح مثلا، وقد كان ـ لو أراد ـ قادرا على أن يسابق أصحاب تلك الفنون فيسبقهم.

وكان الجاحظ حينذاك، يشير من بعيد، إلى أهمية التخصص بتعبير هذا العصر، وإلى انها مفتاح النجاح المؤكد، بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة.

شيء من هذا

أحيانا، تفلت كلمة واحدة من المتهم، أمام جهات التحقيق، فتكون تلك الكلمة التى أفلتت منه، رغما عنه، بداية جديدة، لطريق مختلف تمامًا، فى الاتجاه الذى أخذه التحقيق منذ اللحظة الأولى.

هى كلمة لم يقصدها صاحبها، ولم يتصور أن تكون على هذه الأهمية، التى ترتبط بها مصائر أفراد، وربما جماعات!

شيء من هذا القبيل، حدث بين شاعرنا الفيلسوطف الكبير، أبى العلاء المعرى، وبين صديقه الشاعر والفيلسوف أيضًا: أبن القارح.

وكأن أبا العلاء،، كان فى انتظار تلك الكلمة التى خطها اليه صديقه ابن القارح، وهو لا يتوقع أن يكون لها ذلك الصدى، الذى احدثه واراده أبو العلاء، وجعل منها فاتحة خير، أراد بها أن تعم الفائدة، وان يأخذ رسالة صديقه، وهى كلمة بين صديقين لا أكثر، فينشرها على العامة والخاصة، وعلى جيله الذى عاصره، وكذلك الأجيال التى شاء لها الله أن تأتى فيما بعد.

وإذا كانوا يقولون، أن أكبر النار، من مستصغر الشرر، فهى كذلك حقًا، فى مسألة هذين الصديقين العظيمين، وغيرهما أيضاً، عندما يبعث قارىء - مثلا - برسالة عابرة، إلى رجل يحبه ويقرأ له - وقد كان ابن القارح كذلك بالنسبة لأبى العلاء- ثم لا يتوقع صاحب الرسالة أن تصل، أو ان يهتم بها المرسل اليه، فضلاً عن أن يجعلها بداية لرحلة طويلة، وشيقة جدا، إلى الجنة والنار، كما حدث مع أبى العلاء.

وكأنى بأبى العلاء، يبعث برسالة مماثلة، إلى صديقه ـ وهو لم يفعل ـ ويخاطبه بألا يبتئس، والا يحزن مما صادفه من الحياة والاحياء، وأن يجلسا معًا ويسرى كل واحد عن صديقه، ولا يلقيان بالاً للوزير المغربى، الذى كان قد ضاق به ابن القارح، ولم يجد مفراً من أن يشكوه إلى خير أهل زمانه: أبو العلاء.

ولكنك حين تطالع «رسالة الغفران» وهى الرسالة التى كتبها أبوالعلاء، ردا على كلمات صديقه، تكتشف انه قد أراد أن يحسم فيها اموراً، وقف أمامها ابن القارح حائراً، ولم يعرف كيف يتصرف حيالها.

كان ابن القارح، يكاد يأخذه الفزع، وهو يطالع كل يوم، اشياء يشيب لها كما نقول شعر الغراب ـ وهو لا يشيب ابداً ـ أو تدع الحليم حيران، ولم يكن أمامه بد، من أن يطلب نصيحة ومشورة صديقه العزيز، أن كان، هو الآخر، يفهم شيئا مما يجرى فى تلك الأيام.

ولكن أبا العلاء، جاء لابن القارح من حيث لم يتوقع، ورد عليه بما معناه، أنه إذا كانت أقدار الناس، فى دنيانا هذه تتفاوت، لا عن مقاييس ومعايير حقيقية، وانما لظروف واهواء كثيرة، فلنذهب إلى تلك التى لا ظلم فيها، الى الدار الأخرة، لنرى معا. ومعنا الآخرون أيضاً، ليروا هم كذلك، كيف ينتقل قوم هناك من درجات عليا، كانوا قد اعتلوها فى دنياهم، إلى دركات سفلى، لم تكن تخطر لهم على بال.

وقد كان من أعجب العجب، أن يقع بصر أبى العلاء، ومعه صديقه، على الخنساء، تماضر بنت عمرو، وهى تنوح على أخيها صخر، فى النار، كما ناحت عليه فى الدنيا، وكانت تصيح بأنها لولا كثرة الباكين حولها، على اخوانهم.. لقتلت نفسها!!

رسالة!

أعجب رسالة تلقاها سلطان «حلب» ذات يوم، هى تلك التى أملاها كفيف، وأوحى إليه بها أخرسان، فلم يكن ينقصها، إذن، إلا رجل قعيد يحملها إلى حيث يُراد لها، فتكتمل بذلك جوانب الصورة!

أما الكفيف، فهو ابو العلاء المعرى، انجب من اخرجت معرة النعمان، فى شمال سوريا، وأكثر أهل زمانه عقلا، وحكمة، وعلما، رغم أنه لم يبرح باب بيته، إلا إلى القبر!

ولا تعرف لماذا اختاره الرجلان الأخرسان، كى يكتب باسميهما إلى الأمير، فى أمر مزرعة كانت لهما، اغتصبها منهما بعض الرجال ولم يكونا قادرين على الشكوى، وإن استطاعا معًا، أو استطاع احدهما، فكيف يوضح ذلك لمن حوله، أو كيف يقول أن له مزرعة، وأن أحدا قد استولى عليها، وأنه ـ مع اخيه الأخرس أيضًا ـ يرفع شكواه إلى ولى الأمر.

وقد كان بإمكانهما أن يميلا على أى عابر سبيل، يجيد الكتابة، فيترجم عنهما ما يريدان، ويبعث بالرسالة الى حيث يتولاها أحد، أو تتوه فى الطريق وإن استقرت بين يدى السلطان، فكم من الوقت يحتاج كى يتثبت من أنها ليست كيدية، وان المزرعة تخصهما حقا، وليسا من المدعين.. إلى آخر تلك الخواطر، التى لابد أنها طافت بعقليهما، ثم استقرا معًا، على أن يكون أبوالعلاء هو الوسيط، فتتحقق لهما بذلك إحدى الحسنين، أو الحسنيان معًا.

أما أن يستجيب ولى الأمر، ويرد لهما حقهما، وقد كان ذلك شيئا مؤكدا، لأنها لم تكن المرة الأولى التى يتوسط فيها أبوالعلاء لصاحب حق مهضوم، كما أنه كان من النادر جدا أن يرد له الأمير طلبا. فهذه هى إحدى الحسنيين.

وأما الأخرى فهى أن يتصادف ـ مثلا ـ ولا يستجيب الرجل هذه المرة، لوساطة أبى العلاء، فيكتب لهما، ولرسالتهما الخلود، لأن الذى يكتبها، أو يمليها بمعنى أدق، ليس شخصا عاديا، وهو ما تحقق فعلا، وعاشت الرسالة ضمن رسائل أخرى كثيرة ـ غير رسالة الغفران ـ خطها أبوالعلاء، وصارت تتنقل من بلد لاخر، دون أن يهتم أحد، إن كانت المزرعة قد عادت لأصحابها، أو لم تعد!

واطرف ما فى الرسالة، أنه كتب إلى الأمير، يخبره بأن الشاكيين، ولا يشيان بأحد، ولا يكذبان، ولا يستطيعان ذلك إن أرادا، كما أنهما لا يشتمان ولا يسبان أحداً، لسبب بسيط جداً، وهو أنهما اخرسان!!

ويبدو أن أبا العلاء، قد أراد أن يحصن نفسه جيداً، وأن يضمن استجابة الأمير، فاتخذ إليه مدخلا، من الصعب أن يستشعره المشكو إليه، ثم لا يستجيب.

فلقد جعله فى منزلة يوسف عليه السلام، وكتب إليه بما قاله أخوة يوسف، حين هبطوا إليه ـ وهم لا يعرفون أنه هو ـ وطلبوا إليه أن يوفى لهم الكيل، وأن يتصدق عليهم، فإن الله يجزى المتصدقين!

وبفصيح العبارة ـ أتصور أن أبا العلاء أراد أن يقول ذلك ـ فإن هذه المزرعة، يا أمير البلاد، إن لم تكن بحق للشاكيين، فإنهما يطمعان فى أن تتصدق عليهما، إذ أنه ليس من اللائق أن يكون من بين رعاياك، مظلومان لا يقدران على دفع الظلم عنهما لعاهة لحقت بهما!

ومن المؤكد أن الحق قد عاد لأصحابه، أو لصاحبيه الأخرسين، وأن المتعة قد تحققت لكل الذين سمعوا أو قرأوا عن تلك الرسالة العقلية العجيبة، وفى مقدمتهم الأمير، فهى رسالة جامعة مانعة، فى موضوعها، كما يقول أهل المنطق!

المعنى واضح

كلمة السر، يبدو أنها قديمة، وهى شفرة معروفة، بين شعراء الإنس، وأصدقائهم من الجن، تسعف الشاعر حين تتعثر على لسانه الكلمة، ويجد عجزاً فى التعبير عما يريد.

وأول واحد، تصادف كلمة السر هذه عنده، هو أبو عامر بن شهيد الأندلسى، الذى عاش ومات فى القرن الخامس الهجرى، ووضع كتاب: التوابع والزوابع.

و«التوابع والزوابع» كما تعرفون هى رحلة قام بها، فى الخيال، بمصاحبة أحد الجان، والتقى خلالها مع الموتى ممن سبقوه من الشعراء والأدباء، وأعاد تقييم كل واحد منهم من جديد، على أسس موضوعية هذه المرة، وليس كما جرى فى الدنيا.

وقبل كل ذلك، أراد عامر أن يوفى نفسه حقها، أخذا بقول الشاعر القديم، بأنه من هانت عليه نفسه كانت على الناس أهون، وأنه لابد أن تسارع وتكتب تاريخك أنت بيدك، قبل أن يكتبه آخرون كما يشاء لهم الهوى، وليس كما تهوى أنت!

كان أبو عامر يحب فتاة جميلة، وكانت هى كما نقول اليوم، ملهمته، وهى التى إذا رآها جادت قريحته بأشعار ومعان لم تكن تخطر له على بال، لدرجة أنه تعلم الشعر والنثر معا على يدها، بغير أدنى جهد فى جانبها، فقط يراها، والباقى كانت تجرى به المقادير على لسانه بغير أن يشعر.

أرأيت سطوة الحب.. والحبيب؟ المهم أنهما اختلفا يوما، وانقطع هو عن وصلها بعض الوقت، فلما أحس بأن الصدأ قد ران على عقله، أسرع يزورها، فإذا السر الالهى يصعد من جسدها، فى اللحظة التى يدخل فيها عليها، ولم يدر ماذا يقول، ولا ماذا يفعل، وإنما وقف عاجزا تماما، وضبط نفسه وهو يعتذر ويقول:

وكنت قد مللتك لا عن قلى ولا عن فساد ثوى فى الضمير

والقلى معناه الكره والبغض واما الثوى، فيعنى الاستقرار والاطمئنان، والمعنى بعد ذلك واضح طبعا،

ويذكر أبوعامر، انه نطق بهذا البيت، وتوقف تماما، وأحسن فى تلك اللحظة بأنه أخرس، وأن الكلمات عجماء تمامًا على لسانه، وأنه ما تمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه، كما تمنى فى تلك اللحظة.

وفجأة، لاح له فى الأفق، فارس أبيض من الجن، متكئا على فرس أدهم، له جناحان، يلوح فى الهواء بسيف لامع، وهو يسأله أعجزت يا فتى عن الكلام؟

ويتدارك أبو عامر نفسه، ويلملم أشلاء نفسه، ويخفى عجزه، ويزعم أنه ليس كما زعم فارس الجن، وإنما هى اللغة أحيانا، تخون الإنسان، وتلتبس المعانى على العقل تبعا لذلك.

ولكن أبا عامر يفاجأ بأن رفيقه من الجن، يطلب إليه ألا يبتئس، وأن يستعير منه بيته الثانى، الذى عجز عن الاتيان به، وهو:

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

ويستطرد أبوعامر، فى حوار طويل، دار بينه وبين زهير بن نمير، وهو فارس الجن الذى فاجأه، والذى طلب إليه أن يتخذه صديقا، وأن يعتبره تحت رهن اشارة من اصبعه، إذا هامت نفسه إلى شىء.. فقط بقول:

وإلى زهيـــر الحب يا عـــز إنه إذا ذكـرته الذاكـرات أتاها!!

وعلى هذا النحو، جرت «التوابع والزوابع» يتمنى أبوعامر على الله الأمانى، فتعجز نفسه، فيلوذ بكلمة السر عند صديقه زهير، فيجده بين يديه، وعندئذ لا يضيق صدره، وينطلق لسانه!! وكان كلما أعيته الحيلة، لاذ بصديقه الجن، ففاض عقله بما يبهر السامعين!

سمع فقال!

تعددت الأسماء وتنوعت، ولكن الحقيقة ان هناك اسما واحداً، ووحيدا، لهذا الذى نراه، ونتعامل به، ثم ننكره أو نداريه: الرشوة.

تمامًا، كما تعدد الأسباب، .. والموت فى النهاية واحد.

بالسيارة، بالطائرة، على ظهر مركب فى عرض البحر، تحت عجلات سيارة على جانب من طريق.. إلى آخره.

كلها أشكال ومسميات، تؤدى إلى نفق واحد، يمر منه كل الاحياء.

والقرآن الكريم يقول: أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة.

ولكن الناس، خوفًا من المصير المحتوم، أو بمعنى أدق من مواجهة الحقيقة، يراوغون، ويفاصلون، ويقولون أحيانا، على سبيل التفكه والسخرية: يفتح الله.

ومن حسن الحظ، أو من سوء الحظ، ـ لا تدرى ـ أن لغتنا العربية فيها متسع من الالفاظ والكلمات، بحيث يتمكن المراوغون من الهرب اليها، واللجوء إلى رحابة ساحتها، عند الضرورة، ووقت اللزوم.

بالضبط، كما يحدث، أمام الموت، أو امام الرشوة.. لا فرق.. وهذا مجرد مثال، من أمثلة أخرى كثيرة تموج بها حياتنا.

الناس «الشيك أو الصفوة، وعلية القوم، يسمونها هدية، وتجد الواحد منهم يتمادى فى خداعه، ويلوذ بما لا يمكن للمرء أن يفاصل أو يماطل حوله: الرسول عليه الصلاة والسلام.

يقولون: يا أخى، النبى قبل الهدية.

ومن المؤكد أن الذى يلقى فى وجهك هذه العبارة، لا يعرف متى ولا كيف تقبل النبى الهدية، ولكنه سمع فقال.. وفى كل موقف مشابه لا يستحى أن يقول.

ولغرض فى نفسه هو، لا فى نفس يعقوب هذه المرة، يخفى أن نبيا آخر، هو سليمان عليه السلام، قد رد الهدية فى وجه بلقيس، ملكة سبأ «اليمن» وقطع الشك، كما نقول باليقين.

ومسألة قبول النبى للهدية، التى نلوذ بها كثيرا، بمناسبة ومن غير مناسبة، تحتاج لبحث طويل، أو لوقفة أخرى، لأن الذين يستشهدون بها، قد أخذوا موقفا بعينه، وطوعوه كما يريدون هم، لا كما يريد الرسول.

المهم.. أولاد البلد، عندهم الاسم جاهز، وهو اسم دمه خفيف، وظريف: اكرامية.. أو عمولة.. وأحيانا، وهذا سائد فى الريف أكثر، يقولون: دخان.

فالرجل هناك، يصف لك كرم فلان، أو زيد من الناس، ويدلل على ذلك بأنه لا يتأخر فى ان يجود بـ «الدخان» على كل الذين يعاونونه أو يساعدونه.

وكلها أسماء، ومسميات، واغطية غير شرعية، ما انزل الله بها من سلطان، ولكن الخبرة قد تمخضت عنها، والأيام تلد العجائب.

والخطير فى الأمر، أن تروج هذه الحكاية، ويعتقد الناس فى صحتها، ولا يندهشون لها.

والا خطر أن يتصور البعض، من طول الاعتقاد فى الاكراميات والعمولات والهدايا، انها حق، وانها لا شيء فيها.

والحق انها يمكن أن تكون كذلك، لو لم يترتب عليها ظلم انسان أو هضم حق آخر.

فهل هى كذلك فعلا؟! ناقش الذين حولك، من المؤمنين بها وهم كثيرون جدا وسوف ترى إلى أى حد قطعنا خطوات كبيرة.. إلى الوراء!!

قانون الفلوس

عذبته طويلا، تلك الفتاة الملعونة، سلمى، وقطعت - مبكراً جداً - بأن الحب من طرف واحد، كان موجودا فى الجاهلية أيضًا، كما هو بين ابناء القرن العشرين.

ويبدو أن سلمى، كانت تقيم الحفلات، وتوجه الدعوات، وتدعو كل الذين لاعلاقة لهم بها، إلا فتاها، المرقش الأكبر، سعد بن مالك، الذى يئس تمامًا من أن تلتفت هى إليه، أو تضع فى عينيها «حصوة» ملح، وتدعوه فيمن تدعو، غير انها لم تكن تفعل أبدا!

وإذا كان عنترة بن شداد العبسى، قد جعل حياته الخاصة، ومفاخره الشخصية، طريقا إلى قلب عبلة، وراح يعدد لها مناقبه ومميزاته هو، وليس مناقب أبيه أو أمه أو حتى عائلته، ويحصى لها مآثره فى الحرب والحب معا.. إذا كان قد فعل ذلك. فإن سعد، قال وهو يلقى أخر ورقة فى يده: إنا محيوك ياسلمى فحيينا، وإن سقيت كرام الناس فاسقينا!

ولا تعرف كيف هان عليها، إلى هذا الحد رغم أنه كان يذوب فيها، كما نقول نحن، وحتى دفعته لان يطلب بلسانه هو، ان تدعوه، ثم يستدرك ويحفظ شيئا من ماء وجهه ويقول بأنه لايدعى مع أى احد، وإنما مكانه - ياسلمى - مع كرام الناس!

وعنترة، رغم ما كان بينه وبين ابنة عمه مالك، عبلة، كان عزيز النفس لا يقبل أن يهون، مع أنه كان اجتماعيا فى مرتبة أقل، وكان بينه وبينها تفاوت طبقى فاحش، ولكنه كان أحرص الناس على أن تكون له كرامته، حتى لقد طلب إليها، فى شىء من الكبرياء، أن تسأل عنه ـ إن أرادت ـ الخيل وسوف تخبرك هى، يا ابنة مالك، بما لمسته منى

وما أبعد المسافة، بين عبلة، وسلمى رغم انهما عاشتا، تقريبا، فى زمن واحد، تحكمه ذات التقاليد والعادات.

وإذا كان علماء الطبيعة يقولون، أن لكل فعل رد فعل، مساو له فى الطاقة أو القدرة، ومضاد له فى الإتجاه، فانت من خلال هذا القانون، الذى أبعد ما يكون عن دنيا العاطفة والوجدان تستطيع أن تستشف بعضا مما أغضبها عليه، وجعلها لا تعيره اهتماما.

تستطيع من جملة واحدة، من كل ما قاله المرقش الأكبر، أن تصل إلى سر الأزمة التى نشبت بينهما، وأن تدرك بالضبط، لماذا اندفع الرجل يعتذر لها ذليلا هكذا.

قال فيما قال: نأسو بأموالنا أثار أيدينا!!.. ونأسو هنا، معناها نداوى، والشطر كله، معناه أنهم كانوا أثرياء جدا، إلى الدرجة التى يستطيع أى واحد منهم، أن يفعل مايشاء، فإن اصابت أفعاله مقتلاً لدى الآخرين، فالفلوس موجودة!! يداوون بها آثار أيديهم!!

وليس أبشع من ذلك، بطبيعة الحال، حين تقوم الفلوس، مقام القانون بين الناس!

ويبدو أنه أراد أن يخفى معنى قولته الشنعاء تلك، فسبقها بعبارة جميلة، يمكن أن تخفف من وقع قولته الأولى!

قال الرجل: شعث مفارقنا تغلى مراجلنا.

أى أن الواحد منهم تراه مغبر الوجه والشعر، من طول انغماسه فى العمل الجاد، وفى بيوتهم تغلى الآنية - جمع إناء - الحافلة بصنوف الطعام!!

أراد أن يخدعها، وأن يضع السم فى العسل، فانتكشفت خدعته، وفضحته امام الجميع، وجعلته يأتى مطاطىء الرأس معتذرا!!

سياسة هند!

الآن، عرفنا لماذا انتكس العباس بن الأحنف، فى سوق الحب، فلم يكن له حظ مع النساء، رغم أنه يأتى فى مقدمة الشعراء الذين أنفقوا وقتهم، وأشعارهم فى وصف محاسن المرأة، والغزل العفيف فيها، حتى انه جعل محبوبته، التى كان يحبها، ولا يطولها، إذا طلعت بالليل، فإن أحدا من السائرين لن يضل طريقا!

كان الرجل يستحى، ولا يحب أن يكون متبجحا فى طلب ما يعتقد أنه حقه، وكان يكتفى بأن يبعث إليها رسالة بعد أخرى، وهى لا تكتفى بألا ترد، وإنما تذهب إلى أبعد مدى، فتصدمه فى مشاعره، وتطلب من رفيقتها، أن تفهمه شيئا واحدا، ومهما، وهو أن ينظر إلى وجهه أولا، ثم يحب بعد ذلك ويعشق ما شاء له الحب والعشق معا!

ولأنه كان متواضعا جدا، فى جمال وجهه، فقد نال منه هذا الرد كثيرا وجعل يبكى حتى جف دمع عينيه، وراح يسأل العاشقين أن يعيره أحدهم، عينا مدرارة الدمع، يبكى بها ما كان من أمر فتاته، التى كان فى وسعها أن ترده فى رفق، ولا تقسو عليه هكذا.

وسبحان الله، لو فعل العباس مع النساء كما فعل عمر بن أبى ربيعة، الذى كان بالتعبير الشائع «وجهه مكشوف» لكانت عقدته ـ أى العباس ـ مع المرأة قد انمحت، وما كان قد مات وفى نفسه «شىء» ممن عشقها وأخلص لها، ثم خانته هى ـ ولم تحفظ له عهدا.

ولو فعلت هى، كما فعلت «هند» امرأة عمر، لكان أفضل لها وأحسن، ولكانت قد أرضته، بغير أن ينال ذلك من هيبتها المزعومة أو جمالها الموهوم شيئا.

كانت «هند» إمرأة سياسية ودبلوماسية من الدرجة الأولى، ولو تعلمت منها النساء، ما خاب محب، ولا رجع رجل مهزوما فى الحب أبدا.

كان عمر يلاحقها - كعادته القديمة والمعروفة - ويطاردها، فلا هو يزهق ويبأس، ولا هى ترده فى عنف، أو تقطع الطريق بينه وبينها.

كلما قلت متى ميعادنا

ضحكت هند وقالت: غداً!

هل رأيت امرأة تسوس رجلا وتقوده وتأخذ منه ما تشاء هى، ثم لا تعطيه أى شىء على الإطلاق، ويرضى هو كل الرضا.. كما ترى مع «هند» هذه!

إن رجلا تعلم منها يوما، ورفع لافتة على باب مطعم يملكه، وعليها بالخط العريض: الأكل غداً مجانا.

وكل يوم، كان الزبائن يتقاتلون فى الوصول إلى المطعم، والفوز بمقعد، فإذا ما استقروا طلبوا الطعام المجانى الذى وعدهم به أمس، فيأخذ صاحب المطعم المعترض منهم من يده، ويطلب منه أن يقرأ اللافتة جيدا، وتكون هكذا: الأكل غداً مجاناً!! وإلى يوم القيامة تظل اللافتة تعطى نفس المعنى كل يوم!!

ويظل الرجل و«هند» معه على صواب، ويظل عمر بن أبى ربيعة، ومعه زبائن المطعم عندهم أمل فى أن يصدق الرجل، أو تصدق «هند» ولو مرة واحدة!!

استحى العباس أن يطلب شيئا، وترك الأمر لكرمها هى، ورغبتها هى، فتمادت فى الصد، والهجر، بل والظلم!

ولم يكن عمر يعرف الحياء، فاحتالت عليه «هند» ووعدته، وأخذته بالضحك تارة، وباللين تارة أخرى.. فماذا جرى؟!

صدقت فتاة العباس، معه، وصارحت بحقيقة مشاعرها، فغضب وبكى.

ولم تصدق «هند» مع عمر، وخدعته، وكانت تناوره، وهو يعرف ذلك، فلم يغضب، ولا بكى!

حق عرب.. متأخر جداً!

الله يرحمه، طبيبا، وقاضيا، وفيلسوفا... اتهموه فى دينه، وفى بعض عقله، ووشى به الذين لا يعملون - على رأى عميد الأدب العربى طه حسين - ويضيرهم أن يعمل الآخرون، فدخل السجن، وخرج منه منهكا، متعب، يتساند بعضه فوق بعض.

ففى عام ١٩٩٨ كان من الواجب أن تقيم مأتما كبيرا، بينك وبين نفسك، ثم نقيمه جميعا، لنتلقى واجب العزاء، من جديد، فى ذكرى مرور ٨٠٠ سنة على اختفاء ابن رشد، فيلسوف وقاضى وطبيب قرطبة، بأرض الاندلس.. أسبانيا.

وأقول اختفاء، وليس رحيل أو موت ابن رشد، لأن أهله وقومه، ضاقوا به ذرعا، وتمنوا على الله، أن يريحهم من هذا الرجل، الذى تجلت قدرة الله فى عقله.

ولو أن واحدا، ابن بلد، سمع بعض هذا الكلام، لهتف بينه وبين نفسه أيضا: صحيح سبع صنايع.. والبخت ضايع.

والذين وشوا به، أخذوه بالشبهات، أو بما يشبهها، فيكفى أنه فيلسوف - فى نظرهم طبعا - ليكون عدوا للدين، يستحق أن يموت رجما، ويقوم علامة على التخلف الذى شاع، ولم يحتمل أن يجد للعقل مكانة، أو حتى مكانا.

وبالمناسبة، فإن كلمة فلسفة، ليست كافرة، ولا مفزعة أو مرعبة إلى الحد الذى نتصورة، أو يتصوره كثيرون بيننا على الأقل.

فليست هناك كلمة سيئة السمعة، مرفوضة قبل أن يفكر فيها الناس، أو حتى يتأملوا بعض معناها، مثل كلمة فلسفة وكم كان لها من ضحايا من أصحاب العقول الكبيرة.. وكان يكفى أن يقال عن الواحد منهم أنه فيلسوف.. والباقى أنت تعرفه!

والفلسفة كلمة معناها، ببساطة شديدة، هو محبة الحكمة، والثلاثة الكبار عند اليونان سقراط وأفلاطون وأرسطو، كانوا أكثر إيمانا، وإسلاما، رغم أنهم لم يدركوا الأسلام، من كثيرين ممن يطلقون اللحى، وتجرجر جلابيبهم وراءهم على الأرض، ويضعون السواك فى جيوبهم، سلاحا يواجهون به علوم العصر.

ولكن كيف يشذ واحد عن القبيلة ـ وهذا الواحد هو ابن رشد ـ ويفكر، ويجعل للعقل السيادة، ويقول ان الدين شىء، والفلسفة شىء آخر، وأنه لا تعارض بينهما على الاطلاق.

أرسطو. الفيلسوف العظيم، كان لا يشغله شىء عن تأمل هذا الكون، وكان يقطع دائما، بأن خلفه خالقاً عظيماً، يحركه، ويسيره.

وحاكم المغرب، حين غلب حماره ـ فى ذلك الزمان ـ فى فهم كلام أرسطو، لم يجد غير ابن رشد، ينتدبه لشرح معنى الكلام، والمرامى البعيدة لتلك الفلسفة.

ولكن كل هذا، لم يشفع له، عندما توالت الوشايات، ترمى فيلسوف قرطبة، بأنه قد أصيب فى عقله.

صحيح أن المنصور، الذى سجنه، قد اخرجه من السجن، واعتذر له، ولكن ذلك كان أشبه بمن يشتم رجلا فى ميدان عام، ثم يعتذر له فى حارة، لا يسمع بهما ولا بها احد من الناس.

وقد عرفوا شأنه، وقيمته فيما بعد ـ ودائما نعرف قيمة واقدار الناس بعد أن يهلكوا .. فأقاموا له تمثالا، لا يزال هناك فى قرطبة.

والذين جعلوا له التمثال، فاتهم، كما فاتنا، أنه يفضحهم ويفضحنا، قبل أن يكرمه أو يرد له الاعتبار، فإذا أردت أنت، أن ترد له اعتباره الحقيقى، فبادر واقرأ شيئا له.. أو حتى عنه.

لابد !

بعض الأنبياء، عليهم السلام، يصفهم القرآن الكريم، بأنهم «أولو العزم».

ولو عدت الى سورة طه، فى آياتها الأخيرة، فسوف تجد أن الله تعالى يقول ما معناه، انه قد عهد إلى آدم، بما رأته السماء مناسبا له، ولبنيه من بعده، ولكن «لم نجد له عزما» أى لآدم عليه السلام.

وسوف تصادف آيات أخرى كثيرة، تتردد فيها كلمة العزم، ومشتقاتها المختلفة، كأن تطالع مثلا: فاذا عزمت فتوكل على الله.

والشاعر القديم، كان يلتمس الأعذار، للكسالى والخاملين، ويقول إنه قد صح منه العزم، ولكن الدهر أبى!!

أى أن الدهر رفض وعاند ولم يستجب لعزمه مع غيره من الرجال.

ولأمر ما، نشعر أننا، اليوم، فى حاجة لعزم الأنبياء.. نعم لعزم الأنبياء، كى نتجاوز ما انحدرنا إليه.

صحيح أن زمن المعجزات قد مضى، وأنه لا انبياء بعد محمد عليه الصلاة والسلام.. ولكن العزم، فى معناه البسيط.. والعزيمة فى معناها القريب إلى الاذهان، هو ما ينقصنا جميعا، أفرادا، ومجتمعا بوجه عام.

وإذا أردت أن تفتش فى تراثنا وتاريخنا، عما ينصحنا بأن نحزم أمورنا، ونتوكل على الله، ونأخذ بالعزيمة من كل اطرافها، فسوف تقع على اكوام

وركام من النصائح والأمثال والحكم، التى تصلح لحل مشاكل أهل الأرض كلهم.. ولكن مشكلة واحدة.. واحدة فقط.. لا تجد طريقها إلى الحل، بل تزداد تعقيدا..

وأقرب مثال إلى الذهن، الآن، أجد انه مناسب، كى نتأسى به، هو مثال شاعرنا العربى القديم إمرىء القيس.

والمقصود بطبيعة الحال، فى حكاية امرىء القيس، هو المعنى فقط لا فعله هو، وليس المسألة بحرفيتها، لأنه كان قد عزم على شر، أو ما نعتبره نحن اليوم شرا، ولم يكونوا هم يعتبرونه كذلك، فى جاهلية العرب، قبل الاسلام: الثأر لمقتل أبيه.

كان امرؤ القيس، وهو شاب، ثم وهو رجل ناضج على وعى كبير، لا يعرف غير اللهو، والعبث، والشرب، والنساء.. إلى آخره..

ولم يكن يهتم بغير ذلك أبدا، وكانت بينه وبين أبيه مشاكل كثيرة، بسبب أسلوب الشاب فى الحياة ورفض أبيه لهذا الاسلوب.

ولكن الدهر فاجأه بأن مات أبوه قتيلا، على يد مجموعة من أعدائه، فى القبيلة المنافسة.

وكانت تلك هى الصدمة التى أيقظت الشاب، ونبهته الى أن عليه مسئولية الثأر لأبيه.. عليه هو وحده، وليس على أحد سواه.

والامام على بن أبى طالب، كان يقول أنه: ربما همة، أى هم كبير، ايقظت وأحيت أمه!

وعلى هذا المستوى، وبهذا المعنى، كان مقتل الوالد، الذى هو الهمة التى أحيت وأيقظت الابن، فقرر أن يكف تماما، ونهائيا، عما كان يمضى فيه من لهو وكلام فارغ.

وتغيرت حياة الابن تماما ـ تماما مرة اخرى ـ بعد مقتل الأب، بحيث يمكن أن تميز بوضوح، بين ق.م، أى قبل موت الوالد ثم ب.م، أى بعد مصرعه.

وهذا، بالضبط هو ما أقصده.. إنه المعنى الذى يكمن خلف ما حدث، وقدرة الفرد.. إذا أراد، أن يقلب حياته كلها، رأسا على عقب كما نقول.

والحديث المتواتر، يقول ما معناه، أن لله عبادا، اذا أرادوا.. أراد.

وليس مطلوب منا، جميعا، إلا أن نريد، ثم نقرن الارادة بالعزيمة.. لابد..

الفهرس

الموضوع	الصفحة
١ ـ قبل أن تقرأ	٣
٢ ـ غضب الشيخ	٩
٣ ـ آخر ما نفكر فيه	١٢
٤ ـ متى نتوقف عن هذا العبث	١٦
٥ ـ حاول.. وسوف ترى	١٩
٦ ـ تمشى على استحياء	٢٢
٧ ـ نهرب منه.. إليه	٢٥
٨ ـ .. ولو كانت كافرة	٢٨
٩ ـ ثالث الثلاثة الكبار	٣٠
١٠ ـ بالضبط.. هذا هو الفرق	٣٣
١١ ـ لو تركها .. لعادت تسأله	٣٧
١٢ ـ يقرر.. وقبلها يفكر	٣٩
١٣ ـ كأنها نقش على حجر	٤٢
١٤ ـ إلا.. هذا البيت	٤٥
١٥ ـ تمنى لو يشرب بقاياه	٤٨
١٦ ـ يقين هذه الأم	٥١
١٧ ـ رسالة من امرأة	٥٤

١٨ ـ هى.. وليس غيرها.. بداية الطريق ٥٧
١٩ ـ آخرهم فعلاً ٦١
٢٠ ـ ثورة.. وثروة ٦٤
٢١ ـ انقطع صوته.. ولم يسمعه أحد ٦٧
٢٢ ـ لا حب .. ولا غرام ٧٠
٢٣ ـ رسالة من عريس ٧٤
٢٤ ـ هل هى فضيلة حقاً ٧٧
٢٥ ـ نواطير مصر.. وثعالبها ٨٠
٢٦ ـ المشى فوق الماء ٨٣
٢٧ ـ ملعونة فى كل أرض ٨٦
٢٨ ـ ليس عيباً ٨٨
٢٩ ـ لم يكن بين امرأتين ٩١
٣٠ ـ .. كان!! ٩٤
٣١ ـ بالورقة.. والقلم ٩٦
٣٢ ـ يعزى نفسه.. فى نفسه ٩٩
٣٣ ـ بطل العام.. فى الكلام ١٠٢
٣٤ ـ شهدوا لها ١٠٥
٣٥ ـ غضب وقال: إنه كلام ١٠٨
٣٦ ـ هز رأسه.. ثم ابتسم ١١١
٣٧ ـ الشاهد الثامن ١١٤

٣٨ ـ .. أو يشرب.. فيموت ١١٨
٣٩ ـ ولكنها لا تخلو من المعنى ١٢٠
٤٠ ـ عين المحب ١٢٣
٤١ ـ شيء من هذا ١٢٥
٤٢ ـ رسالة ١٢٧
٤٣ ـ المعنى واضح ١٣٠
٤٤ ـ سمع.. فقال ١٣٣
٤٥ ـ قانون الفلوس ١٣٦
٤٦ ـ سياسة هند ١٣٩
٤٧ ـ حق عرب.. متأخر جداً ١٤٢
٤٨ ـ لابد ! ١٤٥

رقم الإيداع
٢٠٠٦/١٧٧٣٣

الترقيم الدولى
977 – 209 – 152 - 6